(ISSN: 2959-5436) مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (SUJHUS)
2023 (كانون الاول), مجلد 1,عدد 2 ,الصفحات 203-231

صورة الأنا والآخر في الخطاب الروائي العراقي والأمريكي، دراسة مقارنة في روايات ما بعد التغيير

أ.د. عبد الكريم خضير عليوي السعيدي[1]*
[1]*كلية التربية الأساسية, جامعة سومر, ذي قار, العراق*

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى المقارنة بين موقفي الرواية العراقية والرواية الأمريكية ، في موضوع الأنا والآخر ، وكيف نظر كل واحد منهما للآخر ، وهو في أوضاع وأماكن مختلفة ، وقد اختار الباحث لهذه الدراسة عينة من الروايات العراقية والأمريكية التي أنتجت بعد الاحتلال الأمريكي للعراق في عام 2003 ، واتخذت من الحرب الأمريكية على العراق ، موضوعا لها ، ونظرا لضخامة المنجز الروائي الذي اتخذناه ساحة لدراستنا ، رأينا ان نعتمد بالدرجة الأساس على الروايات التي امتازت بحضورها الفاعل على الساحة الثقافية ، سواء أكان ذلك في العراق ام في الولايات المتحدة الأمريكية.

الكلمات المفتاحية: صورة الأنا والآخر ، الصورلوجيا ، الخطاب الروائي العراقي والأمريكي ، روايات ما بعد التغيير.

The Image of the Ego and the other In the Iraqi and American novelist Discourse, a Comparative Study in Post-change Novels.

Professor Dr. Abdul Karim Khudair Aliwi Al-Saidi[1]*
[1]college of Basic Education, University of Sumer, Thi-Qar, Iraq

Abstract

This study seeks to compare the attitudes of the Iraqi novel and the American novel on the subject of the self and the other, and how each of them looked at the other in different situations and places. The American war on Iraq and its subjects, and given the magnitude of the literary works that we took in our arena, we saw that we did not count on the extent to which the representatives made it to the cultural arena, whether it was in Iraq or in the United States of America.

Keywords: The image of the self and the other, photology, Iraqi and American novelist discourse, post-change novels.

مدخل

أصبحت عبارة (ما بعد) بعد منتصف القرن المنصرم ، أشبه ما تكون بشماعة يعلق عليها الناس ما يكتبون ، فها هي ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار وما بعد الكولونيالية وما بعد الصناعية وغيرها ، واليوم جاء دورنا لنضيف لتلك القائمة مفردات أخرى ، مثل ما بعد الربيع العربي و ما بعد التغيير ، ومما لا شك فيه ان تلك المفردات أو العبارات تعني عندما ترتبط بـــ(ما) ان هناك شرخا بين مرحلة سابقة ومرحلة لاحقة ، وبالنسبة لما بين أيدينا فان مصطلح ما بعد التغيير انبثق أول مرة من الأوساط السياسية ، ومن ثم انتقل فيما بعد إلى الأوساط الثقافية ، وراح ينعت به الأدب الذي كتب بعد دخول القوات الأمريكية في العراق سنة 2003 ، فراح النقاد يتكلمون عن ادب جديد ، يختلف عن الأدب الذي انتج قبل هذا التاريخ ، وفي المجال الروائي العراقي عندما نقول (رواية ما بعد التغيير) ، إنما نعني به الروايات الجديدة التي كتبت

* **Email address: alsaedykarem @gmail.com**

بعد ذلك الحدث الكبير ، ونحن عندما نتحدث عن روايات ما بعد التغيير في العراق ، إنما نتحدث عن نتاج روائي كبير لعله يبلغ في بعض تقديراته المئات (1)، وسبب ذلك يعود إلى كون الرواية معنية بتسجيل الواقع الاجتماعي لمحيطها ، ولما كان ذلك الواقع ينطوي على الكثير من الوقائع والإشكاليات ، لأنها ردة فعل عن حقبة طويلة من زمن الديكتاتورية ، تسارعت بالمقابل آلية الإنتاج الروائي العراقي لتغطي تلك الوقائع الاجتماعية الكثيرة ،التي أفرزتها التحولات السياسية الكبيرة بعد الاحتلال والغزو الأمريكي للعراق ، وعندما نتحدث عن رواية ما بعد التغيير ، لا نقصد بها رواية ذات مواصفات فنية جديدة ، فنحن نرى ان هذا المصطلح إنما انطلق من حاجة سياسية وليست فنية ، ومن ثم فان استحضار ما كان محظورا خلال حكم صدام حسين ،لا يعني ان هذه الرواية جديدة ، والروائيون العراقيون الذين كتبوا بعد 2003 ، ليسوا جماعة الموهوبين ، الذين تفتحت مواهبهم بعد 2003، إنما اغلبهم أولئك الذين كانوا يكتبون سابقا ، فربما كتب احدهم رواية تنطوي على أفكار مقاومة ، وخبأ الكاتب مخطوطتها ، بانتظار فسحة الحرية التي كان ينتظرها ،وهذا النمط من الروايات يمكننا التعرف على زمن كتابته ،من جهة طغيان الرمز والتورية فيها ، ويتسأل احد الكتاب قائلا :((إن كان احد الروائيين يمتلك مخطوطة قبل التغيير ولم تتح له طباعتها إلا بعد التغيير فماذا يمكن أن نسمي عمله ؟ وما هي الأسس التي يجب مراعاتها لإطلاق اسم الرواية الجديدة التي ظهرت بعد التغيير ،وهنا لا بد لنا من القول إننا عندما نتحدث عن روايات ما بعد التغيير ، إنما نقصد بها مرحلة تاريخية من عمر العراق ، ولا يهمنا هنا ان كانت روايات ما بعد التغيير تنطوي ميزات فنية تمايزها عن أختها روايات ما قبل التغيير ،أم لا ، كما لا يهمنا ان كان مصطلح ما بعد التغيير قد انبثق من رؤية سياسية أم رؤية فنية ، إننا نبحث هنا عن الروايات التي نشرت بعد عام 2003 وتحدثت عن قضايا حصلت بعد الاحتلال الأمريكي ، ومن ثم فنحن لسنا معنيين برواية كتب مخطوطتها قبل عام 2003 ولكنها طبعت بعد 2003))(2) ، وأما في الجانب الأمريكي ،فان الكتاب الأمريكان قد انتجوا روايات كثيرة تحدثت عن الغزو الأمريكي للعراق وما رافقه من أحداث وانطباعات .

تمهيد نظري:

يتحدث الأدب المقارن ، ولاسيما في توجهاته الفرنسية ،عن صور الشعوب في نظر غيرهم ، يتتبع الدارس في هذا الفرع من الدراسة الأدبية ،صورة شعب أو شخصية ما في نظر مجتمع معين ، ومدى تأثيرها في الرأي العام ،أو ما هو الانطباع الذي يتولد في الذهن جراء الاطلاع على هذه الشخصية أو على هذا المجتمع ،أو ماهي الصورة التي رسمها شعب ما لشعب آخر ، في ضوء ما اكتنزته ذاكرة ذلك الشعب من مسلمات فكرية عميقة غير معلنة أحيانا ،ومما لا شك فيه أن هذه الدراسات في الأدب المقارن لا تأخذ على عاتقها التوثيق التاريخي ، كما أنها لا تدخل في باب علم النفس الاجتماعي ، ومن ثم فهي لا تهدف بالدرجة الأساس إلى تغذية التاريخ أو الجغرافية أو علم الاجتماع بمعارف تحتاجها ، كما هي الرحلات الاستكشافية ، بل أنها تسعى قبل كل شيء إلى تبديد الانطباعات المتخذة سلفا عن المجتمعات الأخرى ،ونفهم من هذا ان ما يعني دارس الأدب هو النقل الأدبي للصورة ، أي أدبيتها وفنيتها ، وهو امر لا يهتم به عالم الاجتماع أو المؤرخ أو السياسي ، فهناك الكثير من الصور التاريخية والاجتماعية والفكرية ، إلا إنها لا تحمل صفة الأدبية ، ومن ثم فان أمرها لا يعني المشتغل بالأدب ،الذي يعنى بوظائف الصورة مستندا في هذا إلى قيم تعمل على تحديد دور هذه الصور في حياة المجتمع ، مما يؤطرها بالاطار الأدبي، وبذلك تقترب آلياتها من آليات النقد الأدبي(3).

الصورلوجيا:

اطلقت الدراسات النقدية الحديثة على هذه الصورة تسمية الصورة الذهنية أو الصورلوجيا (Imageology) وباتت تعرف بالتصور أو الانطباع الذي يبقى في ذهن الإنسان عن بلد أو شعب ، اثر زيارة استكشافية ، أو اثر مطالعة كتاب عن هذا الشعب أو المجتمع ، أو مشاهدة أو سماع حادثة تخصهما ،كما يتم في بعض الأحيان تشكيل صورة الآخر عبر ترجمة نص أدبي كتبه احد أفراد ذلك المجتمع ـ كما هو الحال مع دراستنا ـ أو عبر مقالات نقدية ودراسات أدبية كتبت في الصحافة أو في الدوريات و المجلات الأدبية ، كما يتم تشكيلها عبر الأفلام السينمائية والمعارض الفنية وكافة أنشطة الفنون الجميلة ، وعبر أدب الرحلات وعبر الإبداع الأدبي الذي يجسد الآخر بوساطة الخيال ، ولاسيما في الفنون السردية عامة ، وعلى وجه خاص في الرواية والقصة والمسرح ونادرا ما تظهر في الفن الشعري ، فربما كانت لنا آراء مسبقة وربما خاطئة وغير مطابقة للواقع عن ذلك الشعب أو المجتمع ، ذلك لان كل صورة لابد أن تنشأ عن وعي، مهما كان صغيراً ،راجع إلى وجود نظامين ثقافيين مختلفين في منطقتين مختلفتين من العالم ، والمرء مهما حاول فانه لا يستطيع أن يرى إلا عبر منظاره وأفقه الخاص، وهذا أمر معرفي طبيعي لا علاقة له بحسن النوايا أو بسوئها ، ذلك لان الشرقي لا يستطيع أن يرى الغرب إلا بعين شرقية ، كما ان الغربي لا يستطيع ان يرى الشرق إلا بعين غربية ، وعندما يكون الأدب هو مصدر تلك الصورة ، فان الأديب عندما يرسم ملامح تلك الصورة ، لا يرسمها بمعزل عن ذاته ، ثم يأتي هذا الفرع من الدراسة ليزيل الالتباس الحاصل ويسهم في التفاهم بين الشعوب ،في ضوء رغبة بعض المثقفين في سيادة مناخ من التعايش السلمي بين الشعوب ، لغرض مقاومة لغة العداء ، وترى الدراسات النقدية ان المجال الذي تعمل فيه الصورلوجيا وتتخذه موضوعا لها هو الأجنبي كما يصوره الآخر في أدبه ، على ان الأجنبي هنا مفهوم واسع ، يختلف باختلاف منطلقات الباحثين ، ولاسيما بعد ان توسع هذا المفهوم (الآخر) ليتخطى بعده المكاني (شرق وغرب ـ شمال وجنوب) أو العقائدي (مسلم ـ مسيحي ـ يهودي ...) ، أو غيرها ، إلى مفردات الحياة الإنسانية كلها امرأة و رجل ،صغير وكبير ، ابيض مقابل الأسود ، وإنسان حر متحضر مقابل عبد متوحش ، وبربري مقابل مثقف ، وإنسان مقابل حيوان ، وكائن متفوق مقابل كائن ضعيف) وغيرها من الثنائيات (4)، أي ان الآخر موجود حتى في الأمة الواحدة كالأمة الشرقية أو الأمة الإسلامية ، ففي بعض الدراسات الفكرية والنقدية ، هناك حديث عن الآخر المختلف ثقافة وجنسا وعرقا ، اذ ترى تلك الدراسات ان هناك آخر ؛ فلسفي و فكري، وآخر نفسي ،وآخر إبداعي، وآخر ثقافي .....(5).

الفرق بين الصورة الادبية والصورة الثقافية:

يرى دانيال هنري باجو (D.H.pageaux) ان الشغل الأساس لهذه الدراسات هو استخلاص صورة ذهنية معينة من تجميع الصفات المادية والمعنوية المبثوثة في العمل الأدبي ، ولاسيما في الأعمال الروائية، الأمر الذي جعله يطلق عليها تسمية (الصورة الأدبية)تميزا لها عن الصورلوجيا الكلاسيكية التي كانت قد صبغت الدراسات الفرنسية ،وخلطت بين مجالي الأدب والتاريخ ،إلى ان ظهر(جان – ماري كاري) و (ماريو – فرانسوا غويار) فرسما حدا فاصلا بين المؤرخين والمقارنين ، ثم أعطيا للمقارنين وحدهم حق النقل الأدبي للصورة ، ومن جانبه يرى(باجو)ان هذا الفرع من الدراسة يهتم بدراسة صورة الأجنبي في الآثار الأدبية وما يحيط بها حسب ،بعيدا عما علق من رواسب هذه الصورة في العلوم المجاورة ، فاذا استعضنا عن كلمة ادب بكلمة ثقافة ، فنحن عندئذ سنتقاطع مع الدراسات التي يقوم بها علماء السلالات البشرية وعلماء الإنسانيات وعلماء الاجتماع ومؤرخي العقليات والحساسيات الذين يطرحون مسائل حول ثقافات أخرى، كما سنتقاطع مع الهوية والمثاقفة والتنافر الثقافي والاستلاب الثقافي والراي العام أو الخيال الاجتماعي ، ذلك لان ما يهتم به رجل الأدب هو النقل الأدبي للصورة ،خلافا لعالم الاجتماع والمؤرخ ورجل الدولة الذين يبحثون عن أشياء

أخرى، على ان ذلك لا يعني ان الصورة الثقافية تكتفي بالنصوص الأدبية مصدرها لها حسب، بل عليها كذلك الاهتمام بالبيئة الثقافية التي أنجزت فيها الكتابة (6).

وبالمقابل ظهر علينا من يؤمن بان من غير المجدي التمييز بين الصورة الثقافية والصورة الأدبية ،ولا صحة للاعتقاد بان لكل منهما طبيعته ووظيفته الخاصة، ومن ثم فإننا نستطيع قراءة النتاجات الأدبية، على أنها تمثلات ثقافية والعكس صحيح أيضا ،فـ(هايدن وايت) يكتب عن التاريخ بوصفه أدبا ، و(كليفورد غريتس) يكتب عن الثقافة بوصفها أدبا ، ولعل أرسطو هو أول من أشار إلى طبيعة هذه العلاقة ، عندما تحدث عن الشعر ـ في سياق حديثه عن المحاكاة ـ بوصفه تمثلا لعالم المثل ،أو هو رواية ما ينبغي ان يكون ، في حين تحدث عن التاريخ بوصفه تصويرا للواقعة ،أو هو رواية ما وقع فعلا ،وفي الأدب العربي كثيرا ما تحدث النقاد عن مقدمة ابن خلدون والأغاني ومروج الذهب ورسائل إخوان الصفا وكشاف الزمخشري وعيون الأخبار ، وغيرها الكثير بوصفها مصادر أدبية ، هذه الإشكالية جعلت بروكلمان يعرف الأدب بقوله : كل ما قاله الإنسان بقالب لغوي ، ليوصله إلى الذاكرة (7)، وهكذا شمل الأدب عنده كل مادة مكتوبة ، وفي ضوء هذا التعريف دخلت في خانة الأدب ،حتى نقوش الأقوام البدائية التي وجدت على جداران كهوف الجبال ، ويرى بروكلمان ان الأدب بمعنى الكتابة الإبداعية التخيلية ، إنما هو مفهوم ظهر في بدايات القرن التاسع عشر ، عندما ظهرت الرومانسية في الأدب الغربي ، اذ كان الأدب يعني قبل هذه الفترة كل نص ذي قيمة في المجتمع ، كالنصوص الفلسفية والتاريخية والمقالات والرسائل وغيرها ، والعرب قبل هذا كانت تعد كل اثر مكتوب أدبا ، وهذا ابن خلدون يعرف الأدب في مقدمته بانه علم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ،أو هو حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطرف ، من علوم اللسان وعلوم الشريعة ، وفي معجم الأدباء لياقوت الحموي ،يضع المؤلف الخليل بن احمد الفراهيدي وسيبويه والكسائي والفراء وابن السكيت ومسكويه والطبري والطوسي وابن خالويه والزمخشري والأصفهاني وأبا تمام والبحتري والجاحظ وابن المعتز والمتنبي والمعري والصاحب بن عباد والهمذاني والحريري والثعالبي وغيرهم ، يضعهم جنبا إلى جنب ، لانهم أصحاب صنعة الأدب ، وبالمقابل نرى ان الرومانسيين قد ضيقوا مساحة الأدب ، فجعلوها تشمل الفن اللغوي الخيالي التعبيري الإبداعي حسب ، ويتجسد ذلك في النثر الفني والشعر ، وهكذا شيئا فشيئا يحل المفهوم الرومانسي الحديث للأدب محل مفهوم الأدب الكلاسيكي القديم ،حتى باتت هوية الأدب ،على وفق المفهوم الرومانسي ،لا تنطبق إلا على أنواع محددة من الكتابة ، تتميز بطابعها الخيالي المتجرد من الأبعاد التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية ،أي يتجرد من كل ما له قيمة نفعية ، وظل هذا الفهم للأدب سائدا إلى ان جاءت التفكيكية فعرضته إلى اهتزازات ، بعد ان توجهت التفكيكية في عملها الإجرائي إلى الجمالي وغير الجمالي على حد سواء ، فشملت الفكر والفلسفة فضلا عن الأدب والفنون الجميلة ، فراحت تعمل في نصوص أفلاطون وهيجل وروسو وهورسل وهيدجر وشتراوس ونيتشه ولوكاتش وروسو ودريدا(8).

كانت مناهج ما بعد البنيوية هي الخطوة الأولى على طريق تجاوز الفصل بين ما هو أدبي وما هو ثقافي ،ومن ثم جاءت الدراسات التي ظهرت بعد التفكيكية لتتجاوز مبدأ (النص) المحصور في الصفحة والكتاب ، لصالح (الخطاب) أو لصالح دراسة البنيات الاجتماعية بوصفها شفرات ونصوص ، كما هو حال المشاريع النقدية التي تستخدم الأدوات النقدية في مجالات أخرى(ما وراء الأدبية)، كالتاريخانية الجديدة ودراسات ما بعد الكولونيالية والنقد الثقافي ،والدراسات الثقافية المقارنة ، التي نحن بصدد التعامل معها هنا ،وهي كما هو معلوم مشاريع نقدية ظهرت كرد فعل على المناهج النقدية التي ظلت حبيسة النصوص الإبداعية ،أو على المناهج النقدية التي لم تول اهتماما للعلاقات المعقدة بين الأدب والسياقات الثقافية والتاريخية ، وبانتشار هذه المناهج ينحسر مفهوم الأدب الرومانسي لصالح الدراسات التي تهتم

بالسياقات التاريخية والثقافية والقيمية ، وهذه الدراسات ترى ان النص الثقافي يحمل بالإضافة إلى قيمه الثقافية والاجتماعية ، يحمل قيما جمالية أيضا ، والعكس صحيح كذلك ، أي ان النص الأدبي يحمل في ثناياه قيما ثقافية واجتماعية ، فضلا عما يحمله من قيم جمالية فنية ، ومن ثم فانه من غير المستغرب ان نجد هذه الدراسات تعالج المستندات الرسمية وقصاصات الصحف والمجلات والمستمسكات الشخصية والنقاشات السياسية وغيرها ، بوصفها خطابا ثقافيا يحمل بين جنبيه قيما جمالية ،مثلما هي النصوص الإبداعية الجمالية ، وبعبارة أخرى تخلت هذه الدراسات عن التمييز بين ما هو جمالي وما هو غير جمالي ، مفضلة رفع الحدود الفاصلة بين ما هو أدبي وما هو غير أدبي ، لصالح النصوص الخطابية ـ التي تشمل الأدبي وغير الأدبي ـ مقابل النصوص غير الخطابية ، التي بات يقصد منها هنا الأحداث والمؤسسات والممارسات الاجتماعية ،بل ان تلك الأحداث والممارسات الاجتماعية يمكنها ان تتحول أيضا إلى نصوص أو خطابات ، وبالمحصلة فإننا يمكن ان نرسم حدود العالم الذي يشتغل فيه هذا النمط من الدراسات ، بانه كل حركة أو فعل أو ممارسة أو هيئة أو تقليد أو عرف ، كل ذلك يمكنه ان يكون خطابا ثقافيا يصلح لعمل هذه الدراسات الحديثة ،فصراع الديكة في جزيرة بالي بإندونيسيا ، يمكن قراءتها على إنها خطابات ثقافية جمالية ،قابلة للتأويل ، وبالمعنى ذاته يمكننا دراسة السجن الفردي أو الانفرادي بوصفه خطابا ثقافيا جماليا قابلا للتأويل أيضا ،اذ لم يعد ـ على وفق هذه الدراسات ـ هناك تقاطعا بين ما هو خيالي وما هو حقيقي ، فالأحداث التاريخية تعالج بوصفها ظواهر نصية قابلة للقراءة والتأويل، وبالمقابل تعالج الأعمال الأدبية بوصفها أحداثا مادية (9)، ولعلي لا أجانب الصواب عندما أشير إلى مدى الشبه بين ما تقدم وبين ما جاء به (التاريخ المصغر) الذي يعنى بدراسة التاريخ عبر وسائل غير نمطية (10) .

وأدوار سعيد في كتاباته عن (ما بعد الاستعمار) إنما انطلق من هذا المفهوم ، فالاستعمار الذي هو حركة عسكرية واقتصادية ، يمكننا النظر اليه بوصفه خطابا ثقافيا أيضا ، من هنا فإننا نجد ان اهتمامات نظريات ما بعد الحداثة كالتاريخانية الجديدة والنقد الثقافي والدراسات الثقافية المقارنة، تتشابك مع اهتمامات علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخين والانثروبولوجيين والمتخصصين في الإعلام والسيميائيين والتأويليين وغيرهم ، وبهذه الطريقة لم يعد ممكنا التمييز بين ما هو أدبي جمالي وبين ما هو ثقافي ، بذريعة ان التمثيل الأدبي هو تمثل خيالي ووجداني وتعبيري وذاتي ، والتمثيلات الثقافية الأخرى هي تمثيلات واقعية وحقيقية وجماعية ، لان هذا التمييز لم يعد حاسما ، بل مرفوضا ، فالنص الأدبي ليس معزولا عن النص الثقافي العام ،ومن ثم فان التمثيلات الثقافية قد تكون خيالية في الوقت الذي تزعم فيه إنها تقدم الحقيقة وليس سوى الحقيقة والواقع ، وبالمقابل فان التمثيل الأدبي قد يمثل الواقع ، في الوقت الذي يزعم فيه انه يعبر عن عالم خيالي ، فصورة عنترة بن شداد ـ على سبيل المثال ـ في كتب التاريخ الأدبي ، غير صورته في سيرته الشعبية المعروفة ، وثورة زنج البصرة في كتب التاريخ غير صورتها في شعر ابن الرومي وابن المعتز، وصورة الإمام الحسين عليه السلام في كتب المقاتل غير صورته في شعر الطف ،لان الخطاب الأول يزعم انه يمثل الأحداث والوقائع ،كما هي أو كما وقعت في ارض الواقع ، في حين لا يزعم الخطاب الثاني ذلك . صحيح انه لا يوجد اختلاف بين الخطابين ، لكنه ليس اختلافا حاسما ، فقد تختلف طريقة المؤرخين في عرض الصورة عن طريقة الأدباء ، لكنهم في نهاية المطاف يعرضون واقعة ويروون حدثا قد وقع ، وذلك بعد ان يلائموا بين ما بين أيدهم من وثائق تاريخية وشهادات الشهود ، وبين طبيعة الشكل الكتابي الذي يرومون تقديمه ، وغرضهم الذي يقصدونه من هذه الكتابة ، فاذا كانت ثورة زنج البصرة قد حدثت بالفعل ، فان ما كتبه المؤرخون عنها ، فضلا عن الشعراء ، في كتاباتهم لا يعبر عن حقيقتها ، ذلك لانهم لم يصفوها بوصفها حركة ثورية قامت ضد السياسة العباسية في التمييز الاجتماعي بين السود وغير السود ، بل انهم وصفوها بوصفها حركة ضد الإسلام ، ولهذا وصف أولئك ، صاحب الزنج بنعوت بعيدة عن ارض الواقع ، فهو خبيث وملعون

وخارجي ومدع وكاذب ، وهي أوصاف لا تنقل واقعا بقدر ما تعبر عن موقف متخذ سلفا اتجاهه متحكم في المؤرخ والشاعر معا ، ومن ثم فنحن لا يمكننا الركون للخطابات الثقافية ولا للخطابات الأدبية للوقوف على طبيعة هذه الحادثة التاريخية ، وكذلك هو الحال في حادثة مقتل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام في كربلاء في سنة 61 للهجرة ، فان ما يعرضه شعراء الطف ، غير ما يعرضه أصحاب المقاتل والمؤرخين ، وهكذا هو الحال أيضا مع السيرة الهلالية ، التي تعد من المرويات الخيالية ، ولكنها عند الهلاليين تعد مروية تاريخية متفقون على صحتها ،حتى انهم يرمون القادح بها بالجنون ، وبالمحصلة فإننا أمام تمثيلين ، أولهما غير التخيلي ، والتمثيل الآخر هو التمثيل الثقافي التخيلي (الأدبي)(11).

اسباب ظهور هذا الفرع من الدراسة :

يبدو أن الصور الأدبية التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدراً أساسياً من مصادر سوء الفهم بين الأمم والدول والثقافات ، ولاسيما عندما يقدم الأدب صورة عدائية عن شعب آخر ، فهذا يعني انه قد وقع تحت تأثير قناعات شعبية يغلب عليها النمطية ، كفكرة العدو أو المستعمر أو الشعب المترف وغيرها من الصور الموروثة ، التي عاشت في ذهنية اغلب الشعوب الشرقية ،الأمر الذي يجعل تلك الصورة صورة مشوهة وغير حقيقية ، لأنها اعتمدت على نظرة أو تصور ثابت في الوجدان الجمعي لذلك الشعب أو لتلك الأمة ، ونحن لو تأملنا بدايات هذا الفرع من الدارسة في الأدب المقارن لم نجدها مدينة إلى الرغبة في معرفة الآخر على حقيقته ، إنما على العكس تماما ، فالفرنسيون عندما الحوا على اعتماد هذا الفرع من الدراسة في دراساتهم النقدية الأدبية ، كانوا يأملون منه الإيحاء بانهم شعب يحتل المرتبة الأولى من بين شعوب المعمورة ،ولم تكن غايتهم التقارب بين الشعوب، بعبارة أخرى كانت المنطلقات التي على أساسها ظهر هذا الفرع من الدراسة تنطلق من رؤية كولونيالية أو استعمارية استعلائية ، ويرد في هذا الخصوص قولهم :عندما يعرفون عن انفسهم : أن الفرنسي شارب نبيذ ، وان الإنجليزي شارب للشاي ، في حين اشتهر عن الألماني بانه شارب بيرة، وهم يقصدون من هذا تفوق الإنسان الفرنسي على غيره ، ومن ثم فان سيطرة الصورة النمطية التي تعتمد النظرة الثابتة على تشكيل صورة الآخر ، يجعلها اقرب إلى الآلية والجمود ، تصلح لكل زمان ومكان من دون ان يطرأ عليها أي تغيير ، حتى كأنها تجسد زمنا ماضيا متوقفا ، وما قول الفرنسيين أثناء تعريفهم عن انفسهم بأن الفرنسي شارب نبيذ هو نمط يتعارض مع الإنكليزي شارب الشاي أو الألماني شارب البيرة ، إنما يراد منه الإيحاء للآخرين بأن الفرنسيين يحتلون مرتبة أعلى من غيرهم في سلم التطور الاجتماعي (12).

اليات جديدة لهذا الفرع من الدراسة :

كانت الدراسات السابقة لتشكيل الصورة الثقافية للآخر ، تعتمد بالدرجة الأساس على مخزون الشعب الثقافي لرسم صورة للآخر ، ولكن في النصف الأول من القرن التاسع عشر، اعتمدت آليات جديدة غير الآليات القديمة التي تعتمد على ذاكرة الشعوب الثقافية، جعلت تلك الدراسات تنحو منحى آخر ، ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر قامت الأديبة الفرنسية المعروفة(مدام دو ستال) بزيارة طويلة لألمانيا، في الوقت الذي تصاعد فيه العداء وسوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني، وأثناء الإقامة فوجئت الأديبة بمدى سوء الفهم والجهل الذي يعاني منه الفرنسيون لألمانيا، رغم جوارهم الجغرافي ، ولاسيما بعد ان ثبت لها أن الفرنسيين يجهلون أبسط الأمور المتعلقة بالمجتمع والثقافة والأدب والطبيعة في ألمانيا، لانهم رسموا في أذهانهم صورة لشعب فظ غير متحضر، يتكلم لغة غير جميلة، ليس له إنجازات أدبية أو ثقافية تستحق الذكر، إنها باختصار صورة يرسمها شعب لشعب آخر يعدّه عدوا له ، وهكذا استطاعت الأديبة (مدام دي

ستال) ان تكتشف عبر رحلتها ، الحقيقة التي تم تزويرها للآخر، فلمست عبر التجربة الحية والمعايشة اليومية تمتع الشعب الألماني بمناقب جمة منها الطيبة والاستقامة والصدق ، كما فوجئت بجمال الطبيعة ، ولاسيما نهر الراين والغابة السوداء، فضلا عن غنى الأدب الألماني والمستوى الرفيع الذي بلغته الفلسفة الألمانية، وبذلك لم تركن الأديبة للصورة النمطية المألوفة عن الشعب الألماني الراسخة في ذهنية الشعب الفرنسي ، بل حاولت معرفة الآخر عبر مشاهدتها العينية ، فاقتربت بعقلها وروحها من الآخر الذي أبعدته العداوة وسوء الفهم، واستطاعت أن تقرّبه من صورته الحقيقية بفضل بحثها الذاتي عن الحقيقة ، وهكذا كانت محصلة الرحلة التي قامت بها (مدام دي ستال) إلى المانيا كتابا وضعت له عنوانا بسيطا هو (ألمانيا) سعت فيه إلى تصحيح ما رسخ في أذهان الفرنسيين من صور مشوهة عن الألمان وبلادهم وثقافتهم، لهذا بإمكاننا أن نعدّ هذا الكتاب بداية لما بات يعرف اليوم بصورة الآخر الأدبية (الصورلوجيا)،وفي ضوء ما تقدم يمكننا القول ان الصورة المتشكلة عن الآخر غير ثابتة ، وانها تتغير بتغير الأحوال والظروف ، فصورة المانيا لدى الشعب الفرنسي بعد زيارة (مدام دي ستال) غير صورتها في القرن التاسع عشر(13).

ونخلص من هذا كله ان صورة الآخر التي تستند إلى تجارب وخبرات غنية وكافية قام بها الأديب في المجتمع الذي يصوره، كأن يكون قد ولد ونشأ في ذلك المجتمع، ومعرفته العديد من أبنائه عن كثب، وتربطه ببعضهم علاقات قرابة وصداقة وغيرها من العلاقات الاجتماعية والنفسية، أو ان مصدر تلك الصورة هو أسفار أو رحلات قام بها الأديب إلى بلد أجنبي، أو إقامته في ذلك البلد فترة طويلة لغرض الدراسة أو العمل أو العلاج، وربما في بعض الحالات يقيم الأديب في البلد الأجنبي لأنه ضاق ذرعا بالعيش في بلاده، كما هو حال عبد الوهاب البياتي عندما أقام في إسبانيا بسبب الظروف السياسية في بلده، تكون تلك الصورة صورة عميقة وغنية ودقيقة وتفصيلية ، لأنها استندت الى المعرفة العميقة والشاملة بالمجتمع الذي يصوره الأديب ، خلافا للصورة التي يقدمها أديب ما لشعب أجنبي لا يعرفه حق المعرفة ،اعتمد في رسمها على خياله الذي يغديه العقل الجمعي لمجتمعه ، أي ان الصورة التي يرسمها إنسان ما لشعب أجنبي لا تستند في أغلب الحالات إلى أساس صلب من التجربة والمعرفة والإحاطة بأوضاع ذلك المجتمع، تكون تلك الصورة صورة مشوهة وناقصة ، حتى ولو اعتمد ذلك الإنسان في رسمها على مطالعاته أو إلى أحاديث سمعها حول البلد الأجنبي، أي إلى معرفة غير دقيقة بالمناطق التي يصفها بكل تفصيل ، والمسألة المهمة الأخرى هنا هي ؛ ان تلك الصور التي رسمها الأديب عن ذلك الشعب أو المجتمع ، لا ينبغي ان تكون غايتها إصلاح ذلك المجتمع ، ولاسيما عندما يعبر عن مشكلات ذلك المجتمع وهمومه وقضاياه، ذلك لان الأديب غير ملزم بتتبع عثرات ذلك المجتمع ، كما انه لا رغبة له في إصلاحه أو تغييره نحو الأفضل، فالصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي تنبع أولاً وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ومشكلات قومه في مواجهة الآخر، لذلك تلبي تلك الصورة الأدبية بالدرجة الأساس حاجات الشعب الأجنبي النفسية أو الفنية أو الاجتماعية، من دون أن تلبي حاجات المجتمع المدروس(14).

طبيعة الدراسة :

سننحو في هذه الدراسة ، منحيين رئيسين ، عند دراستنا للآخر في الروايات المختارة، ولاسيما تلك التي اتخذت الحرب الأمريكية على العراق موضوعا لها ؛الأول يدرس الآخر الغربي(على وجه عام والأمريكي على وجه الخصوص) في الروايات العراقية ،أي الروايات التي كتبها الكتاب العراقيون ،حتى وان كانوا يحملون الجنسية الأجنبية ، وكانوا يعيشون في بلاد الآخر أو هم عاشوا فيها حقبة من الزمن ، وينطوي هذا المنحى على دراسة صورة الآخر وهو يعيش في موطنه ، وليس وهو يعيش في موطن الآخر (الذات) فالكثير من الكتاب العراقيين المغتربين كتبوا عن تصوراتهم عن أهل البلاد التي عاشوا فيها ، وان الأمر لم يقتصر على تصوير الآخر وهو يحل بيننا ، وأما المنحى الثاني فيدرس صورة

الشعب العراقي في الروايات الأمريكية ،الأمر الذي سيقدم لنا صورة عن انفسنا من وجهة نظر غربية ، وهو امر سيساعدنا على التعرّف على أشكال التشويه الذي لحق بصورة العرب والمسلمين في العقلية الغربية والأمريكية، مما يقدم تسهيلا لتصحيحه ومعالجته، إذ إن للعرب عامة وللعراقيين خاصة مصلحة في أن تكون صورتهم في الخارج صورة واقعية وقريبة من الحقيقة .

صورة العربي والمسلم النمطية في الذهنية الغربية :

لا يدرك المخيال الغربي عن العرب والإسلام بصورة عامة ، إلا ما تقدمه له وسائل الاتصال الجماهيري بكل أشكالها ، والكتب الدراسية المنهجية التي يتلاقها الطالب منذ نعومة أظفاره ، فضلا عن ما يقدمه له الأدب بكل صنوفه ،وهي صورة لا تخرج بمجملها عن تصوير العربي بوصفه صنوا للبداوة، وكلما يذكر العربي يذكر معه الجسد المحروم الذي تنهكه أسطورة المرأة، وغيرها من الصور النمطية التي علقت في ذهن الغربي عامة، الأمر الذي خلق نوعا من النمطية التي علقت في أذهان الغربيين عن الشرق ، فمنذ تحويل القديس اوغسطين اسقف كانتربري في القرن السادس الميلادي ، إنجلترا إلى ديانة مصدرها الشرق (المسيحية) ، وصورة الشرق الذي هو مصدر تلك الديانة تتعرض للتشويه من لدن الشعوب الغربية ، فضلا عن قادتهم السياسيون والدينيون ، الذين اكدوا تلك الصورة المشوهة ، عبر أساليب شتى ، منها الأدب ، وفي ظل هذه الأجواء تجترح العقلية الغربية ثنائية (الشرق ـ الغرب) ، لكي تؤكد تلك العقلية غلبة الغرب المتطور والمتحرك ، على الشرق الثبات والجامد ، ويبدو ان هذه الثنائية قد نشأت بفعل تراكمات تكدست فوق بعضها على مر العصور، كشفتها دراسات ما بعدالكولونيالية ، وكشف إدوارد سعيد في كتابه الشهير (الاستشراق) ان الغرب الاستعماري قد وضع نفسه في مكان التقدم والتطور والتحضر ، قبالة الشرق المتخلف ، وقد امتزج في رسم ملامح هذه الصورة الأسطوري والديني والتاريخي بالسياسي والثقافي بالعرقي ، وفي كل عصر هناك شرق جديد في أذهان الغربيين ، بدأ من الشرق البربري عند قدماء اليونانيين ، مرورا بالشرق الأسطوري أو شرق السحر والغرائبية ، فضلا عن شرق الصليبين ، وانتهاء بتقسيم الشرق إلى مشارق عدة (ادنى ـ قريب ـ أوسط)،وفي كل مرة ينصب الغرب المتطور نفسه حاكما وخصما ، فهو المركز والمتن والشرق هو الطرف والهامش (15)، وعلى الرغم من كون الشرق عصي على الإدراك ـ كما يصرح بذلك احد الباحثين الغربيين ـ على الرغم من إحاطته بالغرب :الشرق غير موجود على الإطلاق ، لكننا نحن الغربيين نراه في الكتب ، وعلى اللوحات التشكيلية ،وعلى الشاشات ، وفي الشوارع ، وهو قريب منا ، كما انه غير موجود إلا هناك في الشرق ،انه ذلك العريق في القدم ، انه الفجر الأول في التاريخ ، وفي لحظة ما يكون الشرق هو الضياء والروح الكونية والجانب السحري لفضائنا الداخلي ، وهو البعد الذي نضعه بيننا وبين حداثتنا اليسارية ،إلا ان هذا الضياء سرعان ما يرتجف وينطفئ عند ابسط الأحداث العارضة ، ينطفئ عند أول رشة دم ، فيغوص في وحل خوفنا ، ويتراجع نحو النسيان، ليعود الينا في أحلامنا (16) ، وبالفعل فقد محت الأحداث التي تلت احدثا الحادي عشر من أيلول كل ما تبقى للعرب من فضيلة في الذهنية الغربية ، ولاسيما بعد ان سيطرت عصابات القتل والدمار المجاني على الساحة ، حتى الأحجار والآثار لم تسلم من شرورها ، وكل ذلك باسم الرب ، أقول علينا في ضوء هذه الحقائق أن نفهم أنفسنا بشكل أفضل، وفي هذه الحالة ومع إضمارنا حسن النية وليس نظرية المؤامرة ، تشكل الآداب الأجنبية مرآة مهمة لنا ، ونجد فيها فرصة لا تعوض للاطلاع على ما رسمته العقلية الغربية لنا من صورة ، فذلك الأدب قادر على تزويدنا بنقاط ضعفنا التي لا تروق لنا، التي يتحتم علينا معرفتها ، ومما لاريب فيه إن دراسة صورة العراقيين في الرواية الأمريكية يمكن أن يؤدي دورا متمما لدراسة تلك الصورة في وسائل الإعلام الأمريكية، وذلك في إطار مساعينا للتصدي لتشويه صورة العرب عامة والعراق خاصة الذي كان يمارسه الإعلام الأمريكي ، الذي فيما يبدو انه أعاد إنتاج الخطاب التحريضي الذي

كان سائدًا في أوربا قبل الحروب الصليبية من أجل التمهيد والتسويغ لغزو العراق أمام الرأي العام الأمريكي(17)، ولعل من المفيد القول هنا ان العقل الغربي الكلاسيكي عندما يتحدث عن المجتمعات الشرقية عموما ،والبغدادية على وجه الخصوص ، فانه كان يستحضر مجتمعات الف ليلة وليلة الغرائبية ، التي كانت وما زالت قيمة ترفيهية كبيرة له ، ولاسيما حينما تترافق هذه الغرائبية مع مغامراته في بلاد بعيدة عن بلاده وهذا هو احد أسباب اختيارنا لرواية (مائة ليلة وليلة)للكاتب الأمريكي(بنيامين بوتشولز) ، نظرا لتناصها مع حكايات الف ليلة وليلة ، وهذا هو الذي جعل الكاتب الألماني الشهير(غوته) عندما ضجر من مجتمعه الصناعي وضاق به ذرعا ، يفر أو يهرب من مجتمعه إلى مجتمع اقل تطورا خاليا من التعقيدات التقنية التي تعج بها البلدان الغربية فلم يتمكن ، مما اضطره إلى الهرب بخياله ، حاله حال كتاب الرحلة الخيالية الآخرين ،كـ(هرمان هسه) ، فراح يتخيل نفسه وقد طاف في البلدان الشرقية ،بلدان الف ليلة وليلة ،ومن ثم فنحن لا نتوقع منه في هذه الحالة سوى تمجيد الشرق والثناء عليه ،ولكن هذا التصور لا ينطبق على الجندي الأمريكي القادم من رواء المحيط الأطلسي إلى بغداد ، ولاسيما بعد اطلاعه على واقع بغداد المعاصر، فهو عندها يصبح أكثر تمسكا بهويته الثقافية ونمط حياته الباذخ ، لأنه اكتشف حسنات نمطه في الحياة وتفوق ثقافته (بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة) على الثقافات الأخرى .

صورة الغربي النمطية في الذهنية العربية:

تكمن أهمية تلك التصورات أنها تعطي الطرف الآخر(الغربي) وبضمنه الأمريكي ،تصورا واضحا عن طريقة التفكير العربية ، وفي هذا الخصوص فان المخيال العربي عامة والعراقي بشكل خاص يحمل نظرة سلبية للغرب بشكل عام ،عندما يكون الحديث عن استهتار المرأة الغربية ونبذها كل القيم والأعراف ، وفقدان العائلة الغربية للدفء الإنساني والإخاء والروحانية التي تخلو منها المجتمعات المادية عامة ، وفضلا عن ذلك فان الشرق العربي يرى في الغرب موطنا للكفر والإلحاد والشرك بالله ، وموطنا لحانات شرب الخمر المحرم ، ومركزا لممارسة الرذيلة ومكانا للإشباع الجنسي أداته المرأة الشقراء ،حتى بدا وكأن الشرق اصبح فحلا والغرب غانية شقراء ،وفضلا عن ذلك فالغرب موطنا لانحلال الأخلاقي والتفكك الأسري وغيرها من الموبقات ، وهذه صورة سلبية نمطية مختزنة في ذاكرة شعوبنا العربية عن الغرب عموما ، وفي تطور اكثر سلبية يرسم الروائي العربي صورة الغربي والأمريكي بصورة اكثر قتامة من سابقتها ، عندما يكون مدار الحديث عن مساعدة الغرب للحكام العرب الفاسدين ، لكي يتمكنوا من البقاء أطول فترة ممكنة لهم في الحكم ، ما داموا يقدموا خدماتهم لسيدهم الغربي ، اذ يقبع الشرق تحت نير تسلط الحكام الظلمة بمقدرات شعوب المنطقة ، بعد ان مد لهم الغرب يد المساعدة ، لانهم يحمون مصالحه ويحافظون عليها ، فحرموا الإنسان العربي من ابسط حقوقه وهي حرية التفكير والتعبير عن الراي حتى لا يعترض عليهم ، وانتبه الروائي العربي كذلك إلى ان صورة المواطن العربي البسيط الذي يعاني من ظلم حكامه (الإنسان السجين المضطهد المدافع عن ابسط حقوقه المطالب بحريته وكرامته) لم تكن حاضرة في الذهنية الغربية ،بل حضرت بدلا عنها صورة الأمير المتخم الشره الخليع صاحب الكرش العظيم الباحث عن لذائذه ، أو صورة العربي البائس المتخلف الإرهابي الذي يميل إلى العنف ويكره التسامح ويرفض الحوار مع غيره (18)، وفضلا عما تقدم يأتي ذكر المعايير المزدوجة التي تعيش فيها الأنظمة السياسية الغربية ، فالغرب عموما وأمريكا على وجه خاص لا تطبق ما تطبقه في مجتمعاتها من قوانين لحقوق الإنسان على الشعوب الأخرى ، ذلك لان سياستها الخارجية تقوم بالأساس على قهر الآخرين وسلبهم حرياتهم وحقوقهم ونهب خيراتهم ، وخير مثال على ذلك هو ما نراه من ازدواجية في تعامل الغرب عموما وأمريكيا على وجه الخصوص مع إسرائيل ، وذلك عندما يقدم الإعلام الغربي صورة مشوهة ومغلوطة عن الفلسطينيين ، تجعلهم جلادين ، في حين تصور الصهيوني الذي اغتصب الأرض الفلسطينية على انه ضحية

للفلسطينيين الهمج الرعاع (19)، ونظرة العرب للغربيين والأمريكان المشار اليها لم تقتصر على بلد من دون خر ، ففي كل البلدان العربية نجد الصورة ذاتها ، حتى في حال تمتعت تلك البلاد بعلاقات طيبة مع أمريكا ، ولديها سفارة في تل أبيب ، ومن ثم فنحن ادن أمام صورة نمطية ثابتة .

ومقابل هذه الصورة هناك صورة إيجابية عن الغرب احتفظت بها ذاكرة الشعوب العربية ، هي صورته بوصفه مثالا يحتذى به للتطور العلمي ، فالجامعات الغربية ومراكز البحث العلمي ومؤسساته العلمية الأخرى، هي قبلة الشباب العربي الذي يحلم بإكمال دراسته ، فضلا عن كونه مثالا يحتذى به في مجال سيادة القانون ، كما ان الغربيين أناس أذكياء حريصين على أعمالهم ومخلصين ومتقنين لها ،يسعون إلى تطوير انفسهم من خلال العلم والمعرفة ، يحترمون حقوق الإنسان في بلدانهم فضلا عن حقوق الحيوان(20) ولهذه الأسباب راح المصلحون العرب يدعون أقرانهم العرب للاقتداء بهم ،ولكن ليس الى التغريب ، الذي تخشاه المجتمعات العربية ، وعلى أية حال فان الأديب العربي عندما يرسم صورة للآخر الغربي ،بمثل هذه المواصفات ، فانه إنما يعكس تبرمه من مجتمعه ،ومن ثم فان هذا الخطاب الأدبي يحمل بين ثناياه موقفا انتقاديا ورغبة في التغيير ومواكبة الآخر المتقدم .

وعلى نحو عام ،فانه على الرغم من اختلاف صورة الغربي في العصر الحديث والمعاصر في الذهنية الشرقية، عن نظريتها في العصور الوسطى ، اختلافا جذريا ، نظرا لكونه الآن أيقونة للاستعمار والاحتلال ، في حين كان يمثل في القرون الوسطى السذاجة والجهل ، فنحن أيضا نلمس بالمقابل اختلاف صورة الشرق في الوعي الغربي من حقبة إلى أخرى ،فصورة العربي في الذهنية الغربية في القرون الوسطى ليست كصورتها الآن ، إلا انه على الرغم من ذلك كله مازال كلا الجانبين يحتفظ ببعض الثوابت النمطية عن الطرف المقابل ،ونحن عندما نقف أمام ثنائيات مثل ؛ الذكورة والأنوثة ، وعالم الروح وعلم المادة ، أو ثنائية الشرق والغرب ، نجدها حاضرة في وجدان الروائي العربي بصورة عامة في كل زمان وكل مكان .

انماط صورة الاخر في الكتابات الادبية العربية:

لا أريد الخوض بتفصيلات ما توصلت اليه الدراسات السابقة في هذا الموضوع ،على الأقل في الجانب العربي وليس الغربي ، كما لا أود استعراض تلك الدراسات ، نظرا لكثرتها وتنوع أساليبها ، ولكن على نحو عام يمكنني القول ان الباحثين العرب يكاد يجمعون في دراساتهم على ان الكتاب العرب تحدثوا عن ثلاثة أنماط من الصور للآخر في كتاباتهم الإبداعية أو الأدبية ؛ الأول يرسم صورة سوداوية عن الآخر ، عندما يتفشى العداء للآخر ، فتؤدي العلاقات العدائية بين الشعوب إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر (المعادي) ، كما هو الحال مع الصهيونية وحلفائها الغربيين ،الذين كانوا السبب الرئيس لإقامة دويلة مصطنعة في الوسط العربي ، وفي ضوء ما اختزنته الذهنية العربية من مشاهد سلبية عن التحيز الغربي لصالح الصهيونية ،فان الكاتب العربي عندما يسترجع شريط أحداث حروب العرب مع إسرائيل طيلة السنيين الماضية ، عندها سوف يفضي به الأمر إلى خلق صورة سوداوية عن الغرب وأمريكا بصورة خاصة ،نظرا لبشاعة ما قامت به الدول الغربية ، فضلا عن أمريكا من سلوكيات في هذا الباب ، ومن ثم فانه من الطبيعي ان تؤدي العلاقات العدائية بين الشعوب إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر (المعادي) ،وهذا هو النمط الأول الذي يصور فيه الغربي والأمريكي على انه إنسان مادي طماع غير أخلاقي ، وفي اقل تقدير فان الكاتب العربي اذا كان متساهلا مع هذا الغربي ، فانه سوف لا يسمح له في كتاباته بالحديث لإبداء وجهة نظره في مسألة ما ، ذلك لأنه مستعمر ومعادي حاله حال الصهيوني مغتصب الأرض ، مما سيفضي إلى جعل واقع الآخر (الغربي والأمريكي) الثقافي في مرتبة أدنى من الثقافة

المحلية في الأدبيات العربية، وهذا ما نلمسه في أدبيات الغزو والاستعمار ، كما هو شأن صورة المستعمر الإسباني والفرنسي والبريطاني والأمريكي والصهيوني المدعوم غربيا ،في الجهد الروائي العربي ،أي ان الأديب العربي يجتهد هنا ليرسم صورة تثير العداء تجاه الآخر، وهي في الوقت نفسه تثير مشاعر الولاء الوطني والقومي والتوحد مع الـ(نحن) ، ومن ثم تتحول تلك الصورة إلى وسيلة من وسائل التعبئة ضد ذلك المستعمر .

وأما النمط الثاني للآخر، فيرسمه الكاتب العربي ـ الذي ينتمي إلى أمة مهزومة ثقافيا وعسكريا ـ عبر جلد ذاته ، وعبر تصوير الآخر المستعمر تصويرا يبرز حسناته وتفوقه بصورة مطلقة على الثقافة الوطنية الأصلية ، حتى انه يصور ثقافته المحلية بمرتبة ادنى من قرينتها الاستعمارية ، فيترافق التصوير الإيجابي للأجنبي مع صور جلد الذات وتقزيمها ، حتى كأننا أمام صور عنوانها النهائي الانبهار بالآخر على حساب الذات ، مبرزة عقدة النقص تجاه الآخر ثقافة وأسلوب حياة ، وبذلك يقدم الوهم في صورة الأجنبي على حساب الصورة الحقيقية له ، ونجد في هذا الخصوص بعض الكتاب العرب الذين تبهرهم الثقافة والحضارة الغربية إلى حد الهوس ، متجاهلين مشكلاتها وسلبياتها ، وما خلفته فينا من دمار.

ولم يخل الأمر من نمط ثالث في تصوير الآخر في الكتابات العربية الأدبية ،وهو التصوير الذي ينطلق من رؤية متوازنة للذات وللأخر ،رؤية متسامحة ، وهي رؤية تحتاج إلى نضج فكري يقوم على احترام الذات والآخر معا ، رؤية تؤمن بان التبادل بين الطرفين هو السبيل الأمثل لهما ، وفي هذا النمط يعمد الكاتب العربي إلى تصوير الآخر المستعمر بوصفه ندا ، ومن ثم لا مجال للهوس والانبهار به(21) ، وعلينا هنا الإشارة إلى ان بعض الروائيين العرب ، كانوا يعيشون ازمه نفسية فيما يبدو ، فهم من جانب يصورون الغربي صورة سلبية في رواياتهم ، عندما يكون مدار الحديث عن غرب مستعمر وشرق مغلوب على أمره ، ولكن هذا الروائي العربي نفسه تتغير عنده المقاييس عندما يلتقي الغربي المستعمر في سفر أو عندما يعيش معه أو يكون صديقا له (22).

<u>صورة الاخر (الغربي والامريكي) من وجهة نظر الذات العراقية:</u>

لقد رسخت في أذهاننا فكرة كون موطن الآخر الغربي هو لندن و نيويورك وباريس وبرلين وستوكهولم ،وغيرها من عواصم الغرب ، التي كان يقصدها المهاجر العربي ، فقد كان بطل احمد سعداوي في روايته الموسومة (إنه يحلم، أو يلعب، أو يموت) يأمل ان يرى حلقي الرؤوس في تلك الأماكن (23)، ولكن ان تنقلب الصورة وينعكس الاتجاه فيصبح موطننا ،أو موطن الذات هو مقصد رحلة حليقي الرؤوس ، فهذا هو الأمر المستجد على الساحة العراقية ، بعد ان حل المارينز على الأرض العراقية ،لا بوصفهم ضيوفا على بلاد الرافدين ، بل بوصفهم محتلي تلك البلاد ، التي لا يعرفون عنها سوى قصص الف ليلة وليلة ، وأبطالها، كعلاء الدين ومصباحه السحري ،وعلي بابا وحراميه الأربعين ، وغيرها من الشخصيات التي مازال عبقها راسخا في ذهنية هذا القادم من وراء المحيط ، ليس على ظهر بساط الريح كما في أساطير الف ليلة وليلة ،وإنما على ظهر طائرة U52 وعلى ظهر حاملة الطائرات ، حلوا في ارض الرافدين استجابة لما كانت ماكنة الإعلام الأمريكية تروج له ، التي كانت قد صورت جنودها وهم يؤدون واجبهم في انقاذ العراق وشعبه من اخطر ديكتاتور عرفه العالم ، وانهم سوف يجعلون العراق بلدا حرا ديمقراطيا تقتدي به دول العالم ، وهو فعل سيحفظه العراقيون لهم وسيخرجون رافعين لأفراد المارينز أغصان الزيتون ، الأمر الذي شبهه احد المثقفين العراقيين ، بانه وصف لعمل القواد في مقودته ، وفي الأسطر القادمة سنتابع معالم صورة الآخر الذي هو هنا الغربي على وجه عام والأمريكي على وجه الخصوص وهو يجوب شوارع العراق ، نظرا لكون معظم الجيوش الغربية قد راحت بعد عام 2003 تدير شؤون العراقيين ، من خلال ما صوره الكتاب الروائيون العراقيون .

صورة الاخر (الغربي والأمريكي) في ارض الذات:

لابد لنا من الإشارة هنا إلى ان كلا الطرفين ـ العراقي والغربي عموما والأمريكي على وجه الخصوص ـ قد تعرفا على بعضهما مسبقا عن طريق هجرة آلاف العراقيين إلى تلك البلدان ،اثر الغزو العراقي للكويت ،الأمر الذي خلق انطباعا عند معظم العراقيين عن الشعوب الغربية ، ولاسيما ان اغلب الشعب العراقي له أقرباء أو أصدقاء ممن طلب اللجوء لدى تلك الشعوب ، كما علينا ألا ننسى ان بعض الكتاب العراقيين كان ممن عاش أو مازال يعيش في الغرب ،وبالمقابل فان بعض جنود الاحتلال قد تشكل له ـ هو الآخر ـ الانطباع نفسه ،ولاسيما الذين عاشوا أو اختلطوا مع أولئك العراقيين في بلدانهم الأصلية ،ولكن ان يحل أولئك الجنود في ارض الرافدين ،هذا هو الأمر الجديد الذي لم يألفه كلا الطرفين ،على الأقل بعد انتهاء الحقبة الاستعمارية البغيضة . بقيت علينا الإشارة إلى إننا نعد النتاج الروائي المكتوب باللغة العربية عراقيا ،حتى لو كان لكاتبه جنسية غربية ،كما هو حال (سنان أنطون) و(أنعام كجه جي) و(ليلى قصراني) وغيرهم .

مما لا شك فيه ان رواية ما بعد التغيير العراقية ،التي عالجت موضوع الحرب الأمريكية على العراق حاولت رصد سكنات الآخر، الذي هو الغربي بشكل عام ، ولاسيما المحتل أو الغازي بكل تناقضاته وصوره وجنسياته ، بعد ان حلت جيوش متعددة الجنسيات على ارض الرافدين في عام 2003 ، فراحت تلك الروايات تسجل حركات وانفعالات وكل ما يدور في خلد هذا الغريب ، والكاتب العراقي يحاول هنا تسجل كل ما امكنه تسجيله عنه ، وهو تسجيل لا بد ان يكشف عن أيديولوجية مجتمعه ، أو ما يمكن ان يشكل نسقا مفهوميا في المجتمع العراقي اتجاه ذلك المحتل ،وبالمقابل يمثل سلوك الإنسان الغربي عامة والأمريكي بشكل خاص ،ولاسيما المشارك في تلك الحرب ، الأيديولوجية الغربية اتجاه الآخر(العراقي) .

ولما كانت تلكم الروايات تزخر بصورة (الغازي والمغزي ـ المستعمِر والمستعمَر ـ المُحتل والمَحتل)، وهي ثنائية قديمة حاولت الكتابات الأدبية معالجتها معالجات شتى ،ولكنها لا تخرج عن ان هناك جيشا غازيا وبلدا وشعبا محتلا ، وان العلاقة بينهما علاقة تأزم وصدام ، ومن ثم فنحن لا نتوقع الإيجابية عندما يصور احدهما الآخر ، وذلك نظرا لكون تلك الرواية وثيقة لتسجيل انطباعات كل طرف اتجاه الآخر مشافهة بعد ان التقى الطرفان مع بعضهما على ارض الواقع ، وليس على صفحات الكتب والقصص كقصص الف ليلة وليلة كما هو في القرون الوسطى .

تتنوع الأساليب والآليات التي ترسم ملامح ذلك الآخر في العمل الروائي العراقي ، ولعلي لا أجانب الصواب اذا ما قلت هنا ان الروائي يحاول توظيف السيمياء بكل ما أوتي من قوة ، فيشحنها بالدلالات المخفية ،عبر استعماله مفردة لغوية معينة، أو توظيف معين مقصود لتناص أو للمفارقة أو استعمال مقصود للتقنيات الفنية الأخرى ، فضلا عن استخدامه لنمط معين من الحوار في رسم ملامح بعض شخصيات الآخر، وربما يميل الكاتب إلى وصف أفعالها أو سلوكياتها ،عبر التقاط بعض الصور الحية من الحياة ،عندما يصف الروائي تعامل أفراد الجيش الغازي مع الشعب العراقي ، عندما يعتدي أفراد ذلك الجيش على الناس البسطاء ، ويمتهنون كرامتهم ، وعبثا حاول الروائي العراقي الإيحاء لقارئه انه يكتب بحيادية تامة ، وان يخفي حنقه على الغازي بكل جنسياته ، بوساطة أساليب منها كتابته بضمير الغائب ، أو تركه شخصياته الروائية حرية التحرك والكلام بعيدا عن سيطرته ، ولكنه على الرغم من ذلك نجده يصب جام غضبه على ذلك المحتل ، وينعته بأبشع الصفات ، سنقف في الأسطر القادمة عند بعض صور ذلك الغازي ،الأمريكي أو الغربي على وجه عام ، وهو يحل ضيفا ثقيلا على ارض الرافدين ، في رواية ما بعد التغيير العراقية ، ولاسيما الروايات التي عالجت موضوع الحرب .

صورت الكاتبة (أنعام كجه جي) في روايتها الموسومة (الحفيدة الأمريكية) الجنود الأمريكان وهم يستهزؤون بطقوس عاشوراء التي يؤديها أهالي احد أحياء بغداد (الكاظمية)،وهي بالتأكيد صورة غريبة على المجتمع الأمريكي ، ومن ثم فانه عندما يقوم احد الجنود الأمريكان بتقليد صورة اهل ذلك الحي البغدادي ،وهم يصرخون (حيدر ... حيدر) ، إنما تمثل سخرية في الذهنية العراقية ، لا ينبغي السكوت عنها ، الأمر الذي جعل المترجمة (زينة) المسيحية ذات الأصول العراقية ، أن تهب للدفاع عن تلك الطقوس ، بالمقابل تجعل الكاتبة احد الجنود الأمريكان من أصول لاتينية ، يقوم بفعل المترجمة نفسه ، وكأن الكاتبة تقول ان الأمريكان اللاتين يحترمون تقاليد الشعوب، لانهم شعب له تقاليده وليس مثل الشعب الأمريكي الذي لا تقاليد ولا تراث له(24):((وعندما شاهدت سخرية الجنود الأمريكان من مواكب العزاء الحسيني تثور ثائرتها (لا ادري ما دهاني فالمزحة تبقى في نهاية الأمر مجرد مزحة ...لكن ضحكاتهم استفزتني رغم ان الدين لم يكن ديني .. تصرفت مثل أي متطرف غيور على العقيدة))(25)، وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي ان العراقي عندما يواجه الآخر بعد 2003 ، عليه ان يبين اذا كان سنيا أو شيعيا أو كرديا أو مسيحا ،وهو امر لم نألفه سابقا ، في إشارة إلى مدى الانقسام والاصطفاف الطائفي والاثني والقومي ، الذي حل بالمجتمع العراق بعد الغزو الأمريكي ، من هنا يمكننا تفسير اعتراف المترجمة بانها مسيحية عراقية .

وفضلا عن تلك الصورة هناك صورة الكلاب التي تفتش العراقيين الذين يتقززون منها ، فهي نجسة في أعرافهم ودينهم ، وهذه صورة أخرى لا يفهمها الأمريكي ، لعدم تسلحه بالثقافة مثلما تسلح بالحديد والبارود ، واليورانيوم المنضب ، كما لا يفهم الأمريكي لماذا يبيع الشباب العراقي العاطل عن العمل قناني الخمرة إلى أفراد الجيش الأمريكي خلسة(27)، كما صورت لنا المترجمة (زينة بهنام) طريقة المارينز في مداهمة المنازل ليلا ، وكيف يهينون سكان تلك البيوت ،وكيف يقتحمونها (54) ،وهو مشهد يتكرر في اكثر من رواية عراقية ، كرواية (الأمريكان في بيتي) عندما يصور لنا (نزار عبد الستار) الطريقة التي داهم بها الأمريكان منزل بطله (جلال) حتى بات بيته ثكنة عسكرية ، يصبحون الجنود الأمريكان فيه ويمسون ، وهم مدججون بالسلاح ،كما صورت لنا (أنعام كجه جي) بعضا من سلوكيات الجيش الأمريكي ، كإجباره السيارات المدنية العراقية على ترك الشارع المعبد والنزول إلى الكتف الترابي ، بل ان بعضهم يضطر إلى الصعود على الرصيف للحفاظ على سلامته .. كل شيء يتوقف وكان احد ما تناول الريموت كونترول وكبس على زر وقف الصورة ، الكل ينتظر مرور تلك القافلة لكي يعودوا نشاطهم ثانية ، احد الجنود الأمريكان يقول : انهم يكرهوننا (28)، وعندما خطف ثلاثة جنود أمريكان غرب المحمودية ، عمد الجنود الأمريكان إلى ربط اشرطه صفراء على جوع الأشجار، وراحوا يرددون أغنية معروفة في أمريكا ، كتب كلماتها (ارفين ليفن وال راسل براون)، وغناها أول مرة(داون وطوني اورلاند)، في نيسان من عام 1973 ، تقول كلماتها : (اربطي شريطا اصفر حول شجرة البلوط العتيقة) ، تحكي الأغنية عن تقليدا كان متبعا في القرن التاسع عشر يوم كانت الحبيبات يربطن جدائلهن بأشرطة صفراء للدلالة على انتظار الغائب ، فالأصفر هو لون الفرسان ، وفي تطور لاحق استخدمت هذه الأغنية للتذكير بالاحبة الغائبين سواء المحكومين بالسجون أو المفقودين في حرب فيتنام أو الذين احتجزتهم ايران إبان ازمه الرهائن الشهيرة في عام 1979،او الذين فقدوا أو اختطفوا في العراق ، إنها إشارة لهم انهم سيعودون ذويهم ،وسيجدون الأحضان المفتوحة بانتظارهم (29) ، وكانت كلما تظهر ازمه فيها أمريكان مخطوفين تبرز هذه الأغنية إلى السطح ،وتشير المصادر التاريخية إلى ان هذه الثيمة قد جاء بها المستوطنون الإنجليز، من خارج التراث البروتستانتي ، والطريف في الأمر ان هذا التقليد شائع في ثقافتنا العربية المعاصرة ، وذلك عندما يربطن الفتيات قطع القماش والأشرطة على شبابيك أضرحة الأولياء والصالحين ، طلبا لاستجابة النذر، كما ان له صدى في ثقافتنا الماضية ، عندما كان البدوي يربط خيطا على غصن احدى الشجيرات القريبة منه ،

يسمى (الرتم) اذا سافر ، فاذا عاد من سفره ووجد ذلك الخيط على حالته ، اعتقد بان زوجته لم تخنه، وان لم يجده أو وجده محلولا، قال : لقد خانتني ،وفي هذا وردت الكثير من الأشعار فها هو احدهم يقول في ذلك : خانته لما رأتْ شَيْباً بمفرقه .....وغَرّه حِلفُها والعَقْدُ للرتم ، وقال شاعر آخر :لا تحسَبنّ رتائما عقدَتَها .....تنبيك عنها باليقين الصادق (30).

من جانبه يصور لنا (جنان جاسم حلاوي)، بطله (يونس البصري) وهو يلتقي بالمحتل الأمريكي والبريطاني ،عندما يدخل إلى البصرة عن طريق الكويت ، وهناك في نقطة التفتيش الموجودة على الأرض العراقية في مدينة سفوان الحدودية التي تبعد عن الكويت اكثر من أربعين كيلومترا ، يواجههم لأول مرة ، وعندما يدخل إلى الأرض العراقية بعد فترة اغتراب طويلة يشاهد العجلات العسكرية الأمريكية ، فضلا عن الطائرات وهي تتحرك بكل حرية ، وهنا يسأل سائق سيارة الأجرة التي تنقله من الكويت إلى البصرة مستفسرا عن الأمان في تجاوز العجلات العسكرية الأمريكية ، فيجيبه السائق: لا يمكن ذلك ، فالعواقب وخيمة ، فلعل الأمريكان يصادرون السيارة أو يطلقون النار عليها (31) ، ونحن اذا اردنا الحديث عن تصوير الروائيين العراقيين لأفعال الجيش الأمريكي في العراق ، لضاقت بنا الصفحات ، ذلك لان معظم الروايات العراقية التي كتبت بعد التغيير تحدثت عن هذا الموضوع ، فهذا (شاكر نوري) في روايته (المنطقة الخضراء)يصف رفض بعض النسوة العراقيات الامتثال لأمر تفتيشها من لدن احد أفراد المارينز ، مما حدى بها إلى قذف هذا الجندي برضيعها دفاعا عن كرامتها ، ولا يختلف الأمر مع العوائل التي يداهمها أفراد المارينز ، فالأمريكان وحوش يكسرون الأبواب بأعقاب بنادقهم بدل من طرقها ، وذلك إمعانا في صدمة سكانها وترويعهم ، فضلا عن عدم امتلاكهم شيئا عن ثقافة الآخر (32)، وفي الفصل الثلاثين من رواية (هواء قليل)، الذي اسماه (قوات الاحتلال) يصف لنا جنان جاسم حلاوي عبر بطله (يونس البصري)، طريقة تعامل القوات البريطانية التي تحتل البصرة ،عندما اقتادوه سجينا بسبب عدم إخبارهم عن اختطافه من جماعة أرادوه ان يكون مترجما لاحد الجنود البريطانيين المختطفين لديهم ، وكيف حقق احد الضباط الإنجليز معه ، وكان برتبة نقيب ، وكان مما قاله له ذلك النقيب : نحن نتعامل معك على أساس انك مواطن سويدي وليس عراقي ، لان القانون العراقي الساري ـ آنذاك ـ لا يجيز لك اكتساب جنسية أخرى غير الجنسية العراقية ، ومن ثم سوف نعيدك إلى بلدك السويد ، بوصفك شخصا غير مرغوب فيه في العراق ، كما سنقوم باحتجازك لمدة ثلاثة أيام قبل تسفيرك ،وبعد ذلك رمي في قاعة مكتظة بالمساجين العراقيين بعد ان حلقوا شعره أو جزوه ،وهو يشاركهم المعاناة إلى ان تم إبعاده إلى الأرض الكويتية(33).

من جانبه جعل الكاتب (عواد علي) بطل رواية(حليب المارينز) (سامر) يقف عند المحتل وقفة أطول من وقفة (يونس البصري)بطل رواية (هواء قليل) .وقفة تجعله يصدر تصويرا عنهم اكثر وضوحا من تصوير (يونس البصري)، على الرغم من ان مصدر تلك الصور هو التلفاز ونشرات الأخبار، فـ(سامر) الذي يعيش في كندا يشاهد نهب المتحف الوطني العراقي عبر التلفاز ، بعد ان تركت تلك القوات العصابات وهي تتحرك بكل حرية وأمان ، فيقول لزوجته : أولاد القحاب والسحاقيات ،يقولون انهم ذهبوا لتحريرنا ، لكنهم كانوا يتفرجون كالدمى على مهزلة سرقة المتحف العراقي ، كان يكفيهم الإشارة لهذه العصبات فقط لوقف تلك المهزلة ، ولاسيما ان دباباتهم كانت واقفة تحرس المكان ،من أي شيء لا نعلم !!! (34) ، ويتكرر المشهد نفسه في روايات عراقية كثيرة ، منها على سبيل المثال رواية (ذبابة من بلد الكتروني) التي تحدث فيها الكاتب عن ذبابة أمريكية معدة للأبحاث ، استقلت الطائرة عن طريق الخطأ ، ثم انتقلت مع الجنود الأمريكان إلى العراق ، وحطت معهم في معسكراتهم ، ومن ثم انتقلت بعد ذلك ترافق أولئك الجنود لتنقل لنا ما تشاهده من ممارسات لا تختلف بمجملها عما أوردناه سابقا ، وهي صورة تتكرر في روايات عراقية أخرى ، نذكر أيضا رواية (عقيق النوارس) عندما يصور لنا الكاتب (لميس كاظم) ممارسات الجنود الأمريكان في العراق ،ولا تختلف صورة الأمريكي عن صورة

زميله البريطاني ، فهذا الكاتب البصري (ضياء جبيلي) يصور لنا في روايته الموسومة (وجه فنسنت القبيح) ما كانت القوات البريطانية تقوم به من أعمال وممارسات في البصرة ، بعد ان أخذت على عاتقها القيام بمهام الشرطة المحلية وإدارة شؤون البصرة وقصباتها وبلداتها ، وهي ممارسات لا تختلف كثيرا عما أوردناه سابقا .

اكتفي بهذه النماذج التي صورتها أقلام بعض الكتاب العراقيين ، لان الآخرين لا يختلف تصويرهم عما سبق ذكره كثيرا ، وعلى نحو عام فان صورة أمريكا في الروايات العراقية التي صدرت بعد التغيير ، صورة سلبية ، وهي لا تخرج عن كونها وصفا لصورة المحتل ،فاذا كانت هذه هي صورة أمريكا في رواية ما بعد التغيير العراقية ، ترى ما هي صورتها قبل التغيير ، وبعبارة أدق هل احتفظت ذاكرة الرواية العراقية صورة لأمريكا قبل احتلالها للعراق ، وهل تختلف معالم تلك الصورة عن صورتها في روايات ما بعد التغيير؟، وهنا يجيب الدكتور(نجم عبد الله كاظم)عن هذا السؤال فيقول: ان الروائيين العراقيين صوروا أمريكا في كتاباتهم الروائية التي كتبت قبل دخول القوات الأمريكية للعراق ، وكانت تلك الصورة صورة نمطية سلبية ،والأمر لا يختلف مع صورتها بعد 2003 ، فكلا الصورتين متشابه إلى حد التطابق ، ولكن مع تعميق السلبية بعد التغيير ، فقد أصبحت تلك الصورة اكثر سوادا من سابقتها ،على الرغم من كون مجيء أمريكا للعراق ، لم يأت بشكل عدوان صريح ، بل هو مغلف بالوعود وشعارات التخلص من الدكتاتورية والتحرير والتخلص من أسلحة الدمار الشامل، الأمر الذي أدى إلى أن يصاحبه تأييد، وإن كان محدوداً، من لدن بعض العراقيين والعرب ، ويمكن تلخيص أو إيجاز صورة أمريكا في روايات ما بعد التغيير العراقية ، بكونها سببا لخراب هذا البلد ((بعض هذه الروايات عبرت عن هذا الأمر بألم وسخرية تراجيدية مبكية، وأحياناً بما يشبه المرثية للواقع العراقي، أو بما أشبه ان يكون بهجاء مقذع للأمريكي المسبب لهذه المعاناة ، ولكن بالمحصلة يخرج القارئ بموقف شبيه بمشهد احدى الشخصيات الذي يرد في نهاية رواية ميسلون هادي الموسومة (الحدود البرية)،عندما تتبرع هذه الشخصية بهاتفها الخاص لبطل الرواية ، لكي يكلم بواسطته زوجته التي تسكن في الولايات المتحدة الأمريكية ، فيرد عليها البطل قائلا : ((لم تعد لي زوجة هناك)) ، إن العراقي ممثلاً هنا بالبطل يطلق الرصاصة على مشروع الزواج أو اللقاء العراقي- وربما العربي والشرقي والإسلامي- الأمريكي الممكن، ولعل ما يؤكد القطيعة ويعمقها ، أو لنقل الرفض لأمريكا بشكل أكثر حسماً ،هو التخلي حتى عن العراقي او عن الزوجة حينما ترتبط بأمريكا، أو التخلي عن الخطيب أو الزوج ،كما فعلت (ختام) وهي بطلة ميسلون هادي في روايتها الأخرى(حلم وردي فاتح اللون)عندما تركت(ختام)ابن عمها الطبيب وخطيبها الذي هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، إنه ابن عمها.. وكان المفروض أن تتزوجه، ولكن لم يحدث النصيب))(35).

صورة الاخر (الغربي والامريكي) وهو في موطنه :

مثلما رسمت روايات ما بعد التغيير العراقية صورة للآخر الأجنبي وهو يطأ ارض الرافدين (الذات)، رسمت كذلك صورة له وهو في عقر داره ، ففي الآونة الأخيرة عندما اتسع نطاق هجرة العراقيين إلى الغرب ،هربا من الظلم الذي وقع على الشعب العراقي ،حتى أصبحت لندن وستوكهولم وباريس وواشنطن وبرلين موطنا لهم ،صار هذا العراقي عينا لنا على تلك الشعوب وعلى تقاليدها وعاداتها وأعرافها وهي في محل سكناها أو في وطنها ، فعندما يكتب الروائي العراقي الذي يعيش في تلك البلاد ، فهو بالتأكيد سيتمثلها ،من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر ،من هنا قيل بفكرة ادب الداخل وأدب الخارج ، ومن جهة أخرى نجد ان الكاتب الروائي العراقي الذي يتحدث عن حياة المهاجرين في تلك البلدان ، ويعكس تصوراتهم عن البلاد التي أوتهم ، إنما هو يقوم بعمل شبيه بعمل الرحالة ، ذلك لان مهمة الرحالة هي جمع المعطيات التي يشاهدها ومن ثم يصفها للقارئ عبر الأنا أو عبر الذات ، والرحالة عندما يصف الأمكنة ،ويحدد المسافات

ويدققها ،ويصف الأشخاص ، ويصف العادات والتقاليد ، إنما يتم ذلك كله عبر ذاته الشخصية ،فعلى الرغم من كون الرحلات الاستكشافية ، ضربا من ضروب الاكتشاف الجغرافي والاجتماعي والتاريخي والنفسي الموضوعي ، للبلدان وللآخرين ،حتى أصبحت كتب الرحلات من اهم المصادر الجغرافية والاجتماعية والتاريخية للبلدان مقصد الرحلة ، لان الكاتب في تلك الكتب يستقي معلوماته من خلال مشاهداته الحية ، إلا ان تلك المصادر تعد كذلك أدبا ذاتيا ، ولاسيما عندما تندمج ذات الرحالة في موصوفاتها ، وهذا ما نلمسه في الروايات العراقية التي تتحدث عن ثيمة هجرة العراقيين ومعاناتهم في بلاد الغربة ، فالكاتب العراقي المغترب الذي يتحدث عن حياة المغتربين العراقيين وعن معاناتهم وعن تصورات أولئك المغتربين للأوطان التي سكنوها ، إنما هو ينقل معاناته وتصوراته هو أولا ،لأنه مغترب مثلهم ومر بالظروف نفسها التي مروا هم بها ، أو بظروف شبيهة بها ، حتى قيل بان ما يكتب في هذا الباب يدخل في باب السيرة الذاتية ،وفي اقل تقدير انه سمع تلك التصورات من أناس لمسوها لمس اليد ، ومن ثم فانه عندما يصور تلك البلاد إنما يصورها عبر الأنا وعبر الذات ،وفي اقل تقدير انه يصور حساسيته المفرطة من الآخر الغربي الذي يعيش في دياره لاجئا ، يصوره في ضوء عنايته المفرطة في اختيار كلماته عندما يخاطبه ، واضطرابه عندما يدخل أول مرة أماكن لم يدخلها سابقا ، وتأويله الكلام طبقا لفكرة ((انك فائض هنا ومضاف، ويمكن أزاحتك في كل لحظة))(36)، وهذا هو ما سوف نعالجه في الأسطر القادمة ، ونأمل ان نعرض في الأسطر القادمة صورة الآخر الغربي وهو يعيش في بلده بين أهله ، ولكن من وجهة نظر روائي عراقي عبر شخصياته الروائية .

حفل الإنتاج الروائي العراقي الصادر بعد التغيير- سواء الذي اتخذ أو لم يتخذ من الحرب موضوعا أو منطلقا له - بنماذج كثيرة تحدثت عن هذا الموضوع ، ونحن هنا لا نريد إحصاء ذلك ، ولكننا سنختار عددا من تلك الروايات للحديث عن هذا الموضوع ، ومن تلك الأمثلة رواية (طشاري) للكاتبة (أنعام كجه جي) التي وصفت لنا الغربي عامة والفرنسي بصورة خاصة ، فهو ملتزم بقانون اسمه قانون الصمت ، وهو قانون غريب على القادمين من الشرق ، أولئك القادمون من بيئة صحراوية يتطلب منهم الجهر بالصوت حتى يصل صوتهم للطرف الآخر ، في حين لا يتطلب الأمر ذلك من سكنة الكهوف والمغارات والمدن الأوربية الحديثة ، فالجميع في باريس يكره الضوضاء ، فلا يحق لك الكلام وأنت تسير في ممرات الشقق السكنية ولا قرب صناديق البريد ولا أمام المصعد ولا عند حاويات القمامة ، ولا يسمح لك بان تصفق باب الشقة بقوة ، بل تشبث به وراءك ، حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بمنتهى الأدب ، واذا صرخ احدهم وهو يتكلم بالهاتف محاولا إيصال صوته إلى أهله في العراق ، فانه سيجد الشرطة عند الباب قبل ان يغلق الهاتف ، واذا وصلك خبر موت احد أحبائك فإياك ان تصدر صوتا أو أنينا ، حتى لا تلم شرطة باريس كلها عليك ،حتى التلفزيون صوته هناك خفيضا ،والهاتف الكبير يرن بصوت مبحوح ،أما الموبايل فقد استعاض الناس عن جرسه بالرجفان ، واستعاضوا بسماعة الإذن عن السماع المباشر ،واستعاضوا عن صوت منبه الساعة بالوميض الضوئي (37)، وكما يبدو فان هذا القانون لا يسري على باريس حسب ، إنما هو قانون غربي ، فـ(جنان جاسم حلاوي) الذي يتحدث عن السويد ، لم يكتف بالحديث عنه ، بوصفه قانونا غريبا على العراقيين ، بل انه راح يتحدث عن قوانين أخرى غير قانون الصمت ؛هناك قانون الوقوف طويلا بالطابور ، وقانون المواعيد المنضبطة ، وقانون لا زيارات من دون موعد مسبق ، فللزمن هناك سلطته العليا ، وهو ليس كزمن بلاده الذي غالبا ما يذهب عبثا بين التسكع في الشوارع و الجلوس في المقاهي والبارات(38).

وتضيف روايات أخرى سلسلة طويلة عريضة من هذه القوانين ، لعل اطرفها قانون عدم تحريك اليدين في أثناء مخاطبة الآخرين ، وهناك من تحدث عن قانون كتم الدهشة والهزيمة معاً، كجزء من التحضر والتأنق ، وتتحدث الكاتبة نفسها في مكان آخر من روايتها عن التقنين في حياة الدنماركيين ،الأمر الذي صعب على اللاجئة العراقية(صباح التي غيرت اسمها

إلى هلينا سابا) فهمه ،فها هي تلاحظ على الفتاة الدنماركية(نينا)التي تشاركها السكن ،أسلوباً في الحياة غير أسلوبها هي، فهي تقنن في استخدامها لكل شيء ، في المطعم والملبس وفي استخدامها للماء والكهرباء، فهي تغسل الصحون كلها في وعاء لا تبدل ماءه، في حين كانت العراقية صباح تترك حنفية الماء مفتوحة على مصراعيها حتى تنتهي من غسل الصحون ،وفضلا عن ذلك اقتدت صباح برفيقتها في السكن وراحت تختصر وقوفها تحت دوش الحمام تقنينا منها لصرفيات المياه (39) ، وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام علينا الإشارة اليها ، وهي ان المهاجر الشرقي ولاسيما العراقي نجده منضبطا عندما يحل في ديار الآخر الغربي ، يحترم قوانينه ، وعلى سبيل المثال نجد العراقي الذي يتضايق من إشارات المرور في بلده ، نجده هناك ملتزما بها بكل سرور ، وهذا دليل على التناقض الذي يحمله هذا الفرد بين جنبيه ، ولعل حال (صباح البصرية)بطلة رواية(عندما تستيقظ الرائحة) للكاتبة (دنى غالي) هو حال معظم العراقيين .

ولعلي لا أجانب الصواب عندما أقول هنا ان الروائي العراقي ما كان يشير لهذه القوانين ،إلا لأنها غريبة عنه ، فالإنسان الغربي يحكمه قانون العمل ،وليس وارد في ذهنه ان(يعقوب) الذي يحمل الدكتوراه في الفلسفة ، وكان يعمل رئيسا لقسم الفلسفة في كلية الآداب جامعة بغداد ،يأنف من عمله في تشذيب رؤوس الخس من الأوراق التالفة ، ومن ثم وضعها على رفوف الخضار في الأسواق التجارية (40)، بل انه ينظر اليه بوصفه كيانا ادميا مجردا من كل ما علق به ، وكأننا في يوم القيامة عندما يبرز الناس ،ليروا أعمالهم وهم مجردين مما علق بهم من القاب وصفات ، فقيمة المرء ـ كما يقول علي بن أبي طالب ـ ما يحسنه ، وليس ما يحمله من القاب ، بدليل ان (هاني أنور) بطل رواية (عقيق النوارس) اثبت مقدرته العلمية ، فنال إعجاب والد صديقته (نانسي) الذي يمتلك شركة تامين ، الذي لم يكن يتوقع ان يفكر هذا الشاب القادم من بلد مضطرب ،الحاصل على شهادة جامعة بالعلوم السياسية من احدى الجامعات الأمريكية ، بطريقة متحضرة تعجبه ، فيقرر مساعدته ليحصل على وظيفة في دائرة العلاقات الخارجية في لوس أنجلس ، ولو قارنا الأمر بواقع حالنا في العراق ،عندما يقدم الناس بسبب انتماءاتهم العشائرية والحزبية والقومية ، وليس على أساس المقدرة والكفاءة ،لعرفنا الفرق بين طريقة تفكير الجانبين ،ومن ثم فان من يريد من المهاجرين العراقيين ان تتقبله تلك البلدان عليه إثبات مقدرته وكفاءته وليس ولائه لجهة ما ، وعلى المهاجر العراقي التأقلم مع هذا الوضع .

ويستمر الروائي العراقي برسم صورة إيجابية أخرى للإنسان الغربي ، صورة تعكس جديته في طلب العلم وعدم تساهله في تحصيله ، ففي مجال المعاناة التي تحملها المغتربون العراقيون ، تحدث الروائي العراقي عن معاناة أبطاله الحاصلين على مؤهلات جامعية في بلدهم ، فعلى نحو عام يعد عموم المهاجرين معدومي الكفاءة المهنية في بلد المنفى ، فحتى لو كان المهاجر يحمل مؤهلا جامعيا من بلده، يعد في بلد المهجر أميا، أومن دون تحصيل ، لان شهادة الطب والهندسة والأدب والتاريخ والفنون والعلوم وسواها، لا تعني شيئا لبلد الاغتراب إلا اذا عودلت مع مثيلتها الأوروبية، أو درس الشخص اختصاصه من جديد في جامعة أوروبية ، و في هذا الصدد تحكي لنا (أنعام كجه جي) في روايتها الموسومة (طشاري) معاناة الطبية (هندة) ابنة الطبيبة (وردية) في معادلة شهادة الطب التي تحملها في كندا وكيف ان معادلة الشهادة استغرق منها 4 سنوات فضلا عن الجهد والمال ، وحال (هنده) شبيه بحال المهندسة (إباء) بطلة (دوامة الرحيل) للكاتبة(ناصرة السعدون)،وحتى ذلك الحين على المهاجر القبول باي عمل يعرض عليه ،وهو مشهد اضطرار المهاجر العراقي العمل في أعمال لم يعتدها ،عندما كان في وطنه ، كما هو حال (بتول) ام المترجمة (زينة) التي كانت تعمل قبل هجرتها موظفة في احدى الجامعة البغدادية ، فبعد وصولها الى الولايات المتحدة الأمريكية راحت تعمل في تقصير أذيال السراويل التي يشتريها الزبائن مقابل 2 دولار لكل سروال ،قبل ان تتحول الى مساعد طباخ ومن ثم العمل في

استقبال زبائن الفنادق الراقية ، وأما الأب ذلك المذيع الألمعي بهنام ، الذي كان يفتخر بحفظه لأجمل الأشعار والمقطوعات النثرية ، عمل في حمل صناديق البيرة في مخازن أقربائه (الزعاطيط المليونيرية) .

وتماشيا مع تلك الصورة الإيجابية للإنسان الغربي وهو يعيش في بلده،تقارن كاتبة رواية(طشاري)بين فقدان العراقي لجواز سفره ، وفقدان الغربي له ، فتقول : في اوربا يرسلون جوازات سفرهم بالبريد إلى السفارات التي يريدون الحصول منها على تأشيرة دخول ، بعد ان يضعونها في ظرف عليه طابع ، ثم يلقونها في برميل البريد الأحمر ، وكأنك ترسل بطاقة بريد عادية .أنا العراقية كيف القي جوازي في هذا البرميل ، لست مجنونة لأفعل مثلما يفعل الأوربيون !!! لن ارمي جواز سفري في ((صندوق لا ادري ما في جوفه وفي عهدة ساع اجنبي ، لا اعرفه ولا اتق في نواياه ،اذهبي وسأبقى هنا احرس هذا الدفتر الأخضر ، ولا افترق عنه اكثر من المسافة بين يد تعطي ويد تتسلم ، تتصفح ، تختم ، وتعيد ، انه واحد من أنواع خوفي المتعدد الأشكال والأسباب))(41) ،وبالمقابل تحكي لنا معاناة احد اللاجئين العراقيين الذي جاء توا من العراق ، بعد ان فقد والدته في انفجار سيارة مفخخة وضعت أمام الكنيسة في منطقة الدورة ،بسبب فقدانه (ليبل) أو وصل دفع ضريبة السفر ، وهو وصل يفيد بان المسافر قد دفع ضريبة السفر البالغة 400 الف دينار ، وعادة يثبت هذا الوصل على احدى صفحات الجواز ، بعد تدوين رقمه وتاريخه على احدى صفحات الجواز ، لم يشفع لهذا العراقي وجود وصلين آخرين سابقين مماثلين، فقد قال له الموظف انك سافرت ثلاث مرات قبل اليوم ، وهذان وصلان فقط ، أين الوصل الثالث ؟ ، حاول الرجل ان يفهم العلاقة بين وصل يعود لسفرة سابقة قديمة وبين السفرة التي ينوي القيام بها ، ولكن دونما جواب منطقي ، وبعد تجادله مع هذا الموظف، يحال هذا المسافر الى القاضي المختص ومعه آخرون مثله ،بتهمة فقدان ليبل ، فيأمر القاضي بحبس كل واحد منهم سنة واحدة ، ثم تعود معاونة القاضي لمساومتهم على دفع مبلغ قدره خمسون الف دينار مقابل إضافة فقرة مع إيقاف التنفيذ في قرار الحكم (42) ،فاذا كان هذا هو حال المواطن العراقي الذي يفقد وصل (ليبل) لسفرة سابقة ، ترى كيف سيكون حاله اذا فقد جواز سفره ؟ ، لهذا السبب تقول (أنعام كجه جي) على لسان بطلتها (وريدة) : ما احلى اللون النبيذي في الجواز الصغير المطبوع بأناقة ، تحترمه شرطة الحدود ويبتسمون لحامله))(43) ، وتضيف في مكان آخر: لقد كان العراقيون أيام زمان مدللين في قنصليات العالم ومطاراته ، كانوا سياحا ميسورين من دولة نفطية ، جوازاتهم غير منبوذة ولا تثير الريبة ، ولا يقفون على أبواب القنصليات كالأيتام على موائد اللئام(44)، ولكن الوضع في الغرب عموما يختلف عما هو عندنا ، هناك لا تتغير القوانين بتغير الحاكم ، فان يتبدل البابا ويتبدل ساركوزي ، ولكن تبقى شروط ضيافة اللاجئ هي هي ؛ سكن رخيص وتامين صحي ومنحة تغطي معيشة متقشفة (45) .

لكن تلك الصورة الوردية عن الغرب والغربيين لا تستمر طويلا ، فـ(جنان جاسم حلاوي)يوغل في وصف معاناة اللاجئ العربي والمسلم في تلك البلاد عبر شخصية(يونس البصري) من جراء عنصرية بعض أهلها ، سبب سوء التفاهم الناجم من تباين الطباع والعادات والقيم والأصول ، وعدم الانسجام الاثني ، فتعمل مفاعيل ذلك في النفوس خفية ،لتنفجر على شكل اعتراضات وسخرية وغضب ، فالمهاجر الآسيوي ، ولاسيما المسلم ذا العينين الحمراوين والشعر الكرت الأسود ، كانه شعر الزنوج ، اذ لم يستطع يونس إقناع نفسه بان ما يشاهده أمامه يوميا في الشارع السويدي ، هو في الحقيقة فوبيا كره المهاجرين تعتمر في نفسه لا أساس لها ، فمنظره وهو يعيش محاصرا من الجنس الأشقر ذوي العيون الزرق ،لا يوحي بذلك ،فها هم يحدقون به ، ويبصقون على الأرض ، كأنهم يبصقون عليه ، يقصدون إهانته واحتقاره ،فاذا استطاع يونس إقناع نفسه بانهم يبصقون من مرارة السيجارة التي يدخنونها ، ولكنه لم يستطع فعل الشيء ذاته مع تصرفات اليمنيين أو النازيين السويديين ، الذين راحوا يرسمون الصليب المعقوف خلسة على أبواب بيوت اللاجئين وشققهم ، وكيف يقنع نفسه بان (رجل الليزر) - وهو لقب اطلقته الصحافة على احد الأشخاص الذي يرصد المهاجرين

ويتتبع حركاتهم ، ومن ثم يطلق عليهم النار من سلاح مزود بأشعة الليزر ، حتى لا يخطئ هدفه ـ هو من صنع الفوبيا وليس هو احد أفراد مليشيا النازيين الجدد . كان يونس يعتقد ان تلك الشعارات قد انقرضت ولم تعد تشاهد سوى بالأفلام الوثائقية وكتب التاريخ والمتاحف ، ولكن المهاجر صار يلمسها لمس اليد هنا في السويد ، في البدء كان يعتقد ان سبب ذلك يعود إلى كونه مسلما ، لا يؤمن بالصليب ،ولكنه عدل عن هذه الفكرة عندما شاهد مواطنيه العراقيين المسيحيين وهم يكبرون حجم الصليب الذي يرتدونه على صدورهم ، بغية تميزهم عن مواطنيهم المسلمين ،وبعد انتشار الاسلاموفوبيا في البلاد الأوربية ،واتساع نطاق العداء للمهاجرين ،زادت حيرته ، ولكي يقطع الشك باليقين ، اشترى قلنسوة صوفية مزينة بالعلم السويدي ، أي بالصليب الأصفر ،كصفرة شعور السويديين ،على خلفية زرقاء كزرقة عيونهم ، لعل ذلك يخلصه من سلاح البصقة الاستفزازي ، ومن اعتداءات حليقي الرؤوس اليمينيين ،أو النازيين الجدد ،الذين يلبسون ملابس المليشيات الهتلرية ويطوفون في الطرقات وهم يصرخون:(اطردوا المهاجرين ، القوا بالغرباء خارجا ، السويد للسويديين)، ويرسمون على أبواب منازل المهاجرين الصليب المعقوف مهددين إياهم بالرحيل أو الموت ، ولكنه في النهاية لم يفلح ، بعد ان زادت سخرية المارة منه (46)،حتى بدا كأنه جمل أمرئ القيس الشهير وهو يتمطى على الثلوج القطبية(47)،ولا يختلف الكاتب(محمود البياتي)عن زميله(جنان جاسم حلاوي)عندما يصور حال المهاجرين ، ولاسيما العرب والعراقيين منهم في روايته الموسومة (رقص على الماء ـ أحلام وعرة) وهم يعزلون انفسهم في أماكن يشعرون فيها بالأمان ، فالسويديون يرفضون دمج المهاجرين ، والمهاجرون من ناحيتهم يرفضون الاندماج ، ويفضلون الانعزال في أماكن يشعرون فيها بالأمان والراحة مثل حي (همركولان) ، وهو حي سيء السمعة تنقصه المؤسسات الخدمية والترفيهية، وهو مكتظ بالعرب والكرد والصوماليين واللاتين أميركيين واليوغسلافيين والغجر، مع عدد محدود من السويديين (48)، من جانب آخر أشارت بعض الروايات العراقية ، ولاسيما التي اتخذ أبطالها الولايات المتحدة الأمريكية مكانا لعيشهم ،على تنامي الروح العنصرية اتجاه العرب والمسلمين بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ،فقد طرد(عمر) والكثير من زملائه العرب العاملين في شركة الحراسة التي يعملون فيها ،و(جميل)صاحب ستوديو في شيكاغو، الذي تطلب منه امرأة مكسيكية تصوير ابنها ذا العام الواحد وهو يبول على صورة للبيت الأبيض ، يرفض (جميل) عرض تلك المرأة ، لأنه سيلاقي الأمرين بسببه ، وحين تسأل (كاثي) صديقها ومنقذها (عمر)عن موطنه فيقول لها انه من العراق ،فحدقت به غير مصدّقة:((العراق، العراق، ابن لادن، أكل ذلك الحديث في التلفزيون والجرائد والإذاعة عن الحرب المقبلة يتجه نحو بلدك ؟))(49).

ويبدو مما تقدم إن نظرة العراقيين للغربيين ،يمتزج فيها الانبهار إلى درجة الإحساس بالدونية ، وعدم السماح للنفس بالتعامل بندية معهم ، فضلا عن النفور والاستعلاء ،عندما يكون الحديث عن التماسك الاجتماعي والقيمي، فاذا ما وصلت نوبة الحديث إلى قضية التفكك الأسري والانحلال الجنسي عند الغربيين ، تجد الروائي العراقي يطنب في هذه المفردة ، حتى كأنه كان ينتظر هذه الفرصة منذ زمن طويل ، كيف لا وهو يتحين الفرصة للثأر لكرامته المهدورة على أعتابهم ، عندما كان يتوسلهم للقبول به لاجئا في بلدانهم ، ومن ثم فإنني اجد ان الروائي العراقي بشكل خاص والعربي بشكل عام ، عندما يتحدث عن الجنس المباح في حياة الغربيين ، كأنه يبحث عن نصر في أية ساحة نزال معهم ، ولما عجز عن الحاق الهزيمة بالغربيين في ساحات العلم والتقدم وتوفر الأمن والخدمات والرفاهية ، راح يبحث عن موقف أو جانب يعلن فيه تفوقه ورفع شارة النصر فيه ، فلم يجد غير الحديث عن تفكك العرى الاجتماعية بين أفراد المجتمعات الغربية ،وشيوع العلاقات الجنسية خارج بيت الزوجية ، محذرا أبناء جلدته من خطورة الاستلاب ، والضعف أمام قيم لا تمت بصلة لمجتمعاتنا الشرقية المحافظة ،كما حصل مع (هناء إبراهيم شكري)، في رواية (ميلاد حزين) التي فضت

بكارتها من غير زواج وهي في الثالثة عشر من عمرها ، بعد ان منحت جسدها لمجموعة من الشبان الذين اعتقدت انهم لا يغدرون بها ، وتبعت هذا السلوك باصطحابها رجلا سويديا يكبرها بخمسة عشر عاما إلى منزلها ، لتقول لأهلها :((سأرتبط بهذا الرجل ،كاد إبراهيم ان يصاب بسكتة قلبية))(50)،وفي رواية (سهدوثا)تحدثنا الكاتبة عن ظاهرة حمل المرأة من دون زواج ، وعن عدم السماح برمي الأطفال الذين ينتجون من العلاقات غير الرسمية في المزابل ، وتشير بهذا الصدد الى عبارة علقت على احد الجدران الملاصق لحاوية القمامة ، كتب عليها الرجاء عدم رمي الأطفال في حاوية القمامة ، ضعوهم في صناديق من الكارتون على جنب ،ونحن نعتني بهم(51).

ويشير النقاد إلى ان معظم الروايات العربية التي تتحدث عن هذا الموضوع ، تكاد تتفق على جعلها الرجل العربي ، في موقع الذكورة ، وبمقابل جعل الأنوثة من نصيب الأوربيين والغربيين ، في إطار الرمز الكبير وهو صراع الحضارات(52) ، وفي هذا الصدد يمكننا فهم تجربة (يونس البصري) بطل رواية (هواء قليل) مع المبشرة (انكيا) التي كانت تأمل بهدايته للدين المسيحي، ولكنه كان ينظر اليها على أنها مشروع جنسي (53)، كما يمكننا فهم تجربة(سامر) بطل رواية (حليب المارينز) مع صديقته (آنيا)، كما يمكنا فهم ما يقوم به (سرمد) في بريطانيا ، في رواية (التشهي)، وفي السياق ذاته يمكننا فهم ما جرى لـ(جسيكا)بطلة رواية (جمر عراقي على ثلج سويدي) للكاتب (علي عبد العال) ،تلك الشابة السويدية ذات الـ14 عاما التي رفعت شكوى على أبيها في احدى المحاكم السويدية ، لأنه واظب على اغتصابها منذ نعومة أظفارها ، ولكون المؤلف شرقيا مشبعا بقيم اجتماعية ينظر للأبوة بوصفها شيئا مقدسا ، لم يصدق ما قالته الشابة ، كما انه مستغرب من ان تناقش المحاكم السويدية مثل هذه القضايا علنا أمام الصحافة المحلية ، ففي بلداننا الشرقية يحاول المسؤولون التكتم على مثل هذه الجرائم ، ذلك لان ديننا الإسلامي يطلب منا عدم إشاعة مثل هذه الجرائم بين أبناء المجتمع ،وجعلها مقصورة بين ذوي الشأن فقط ، لئلا يعتادها الناس فيرتكبونها من دون خوف او وجل ، ولهذا كان يظن في بادئ الأمر ان سلوك هذه المراهقة يدخل في باب الطمع بالتعويض المادي الذي ستحصل عليه ، بوصفه تعويضا عن عما سببه سلوك أبيها من أضرار جسدية ونفسية، فيتعاطف هذا الصحافي المتدرب في البداية مع دموع الأب، لكنه سرعان ما يكتشف إساءة الأب للأبوة، فراح يتضامن مع الضحية ، وفي أثناء تضامنه معها ، ولكونه يحمل قيما أخرى مهاجرة ، فالأمر هنا مختلف، فتنشأ علاقة بين (جيسكا)، الضحية الفائزة بحكم المحكمة والصحافي المهاجر ذي الجذور الشرقية الذي تابع يومياتها بعاطفة تحمل بين طياتها حرارة غير مألوفة نحو شابة تربت على علاقات محسوبة، لكنها استطاعت في النهاية أن تبرد قطعة الجمر على ثلج الشمال الإسكندنافي وتصهرها في الفضاء الشاسع الغريب ،ولا يختلف ما قام به بطل رواية (جمر عراقي على ثلج سويدي) ،عما قام به(عمر) بطل (حافة التيه) الجزء الأول من (ثلاثية شيكاغو) للكاتب (محمود سعيد)، فـ(عمر) ذو الثلاث وستين عاما ينقذ شابة(كاثي)بعمر ابنته من حضيرة الدعارة ومن المحاولات المتكررة لاغتصابها من آباء مفترضين، ويساعدها لتخطي محنتها ، فتتعلق تلك الفتاة به ،على الرغم من فارق العمر بينهما ، ومن ثم فإننا نخلص من هذا كله إلى نتيجة طالما أشارت اليها الدراسات العربية بهذا الخصوص ، وهي ان انحلال العائلة الغربية ، الأمر الذي أكدته رواية (المدفع) التي تحدثت عن ان مسألة اغتصاب الأخ لأخته أمرا عاديا (54).

لاريب ان الإنسان المنصف سيقدر البون الثقافي الواسع بين الطرفين (الغربي ـ الشرقي) في هذه المسألة ، نظرا لاختلاف المنابع الثقافية لكليهما ، وكما يبدو فان الحلقة الأهم في موضوع الشرخ الثقافي الواسع بين الاثنين ،هي الجنس ، فعلى سبيل المثال ، ماذا بوسع امرأة فقيرة ضائعة مجبرة على ممارسة البغاء ان تعمل ؟فهي المهنة الوحيدة المتوفرة لها في مجتمع لا يرحم ، وغير ذلك أليس لها الحق ان تقول لرجل أحبته بصدق: (أقسم بكل المقدسات أنني مخلصة لكَ)؟،

لاشك ان فهم هذا التشابك أو التداخل بين العفة والبغاء ، وبين الطهارة والرذيلة ، وبين الشرف والانحطاط الأخلاقي ، هو من اهم الأسباب التي خلقت الفجوة الثقافية بين الطرفين (الشرقي والغربي)(55)،وعلى نحو عام يفهم الرجل الشرقي الغرب ،على انه الجنس المباح ، ويفهم الصيف السويدي على انه غواية الجسد ،عندما يتح للأجساد ان تعرض (56)، الأمر الذي افضى إلى سوء فهم ثقافي أوصله إلى ما وصل اليه .

الذات بوصفه اخرا :

بادئ ذي بدء ، علينا الإشارة إلى ان معظم الكتاب الأمريكان الذين كتبوا روايات تخص الحرب في العراق وتداعياتها ، ،ووقع الاختيار عليهم في هذه الدراسة ، أما كانوا جنودا في الجيش الأمريكي الذي دخل العراق ، أو كانوا مراسلين صحفيين أو كتابا يتابعون تحركات ذلك الجيش أينما حل ، وفي اضعف الإيمان فان الكتاب الأمريكان الذين اعتمدوا على السماع والمشاهدة كانوا قلة قياسا للذين اطلعوا على الواقع عن كثب ، وفي ضوء ذلك حاول هؤلاء نقل التصورات التي كانت وسائل الإعلام الأمريكية تنقلها لأفراد ذلك الشعب ، ومفادها ان الجيش الأمريكي إنما جاء لتخليص الشعب العراقي من طاغية ظل جاثما على صدره طيلة ثلاثة عقود ،وان الشعب العراقي سيخرج للترحيب بهذا الفاتح ،حاملا بيده أغصان الزيتون ،العراقيون جميعهم سيفرحون بتحريرهم من نظام صدام حسين. (57)

مثلما أشارت الروايات العراقية إلى قوانين اجتماعية تتحكم بالإنسان الغربي ، على المهاجر العربي والشرقي الانسجام معها والتعامل معها بإيجابية ، فيما اذا أراد ذلك المهاجر البقاء في مغتربه ، كذلك تكلمت الروايات الأمريكية عن الموضوع نفسه على الجانب العراقي ، فهناك قوانين وأعراف اجتماعية اشرتها الروايات الأمريكية ، بوصفها قوانين غريبة عن مجتمعه ، ومن ذلك كره الرجل العراقي للنساء المدخنات وشاربات الخمر ،وبالمقابل وجد الروائي الأمريكي ان الرجل العراقي يتعامل بإيجابية مع الرجل المدخن وشارب الخمر ،وعلى سبيل المثال تكلمت رواية (مائة ليلة وليلة) عن حفلة عرس(أبي صحيح) فكان الرجال في ذلك الحفل يتناولون الخمر وتدخين السكائر ، في حين حظر هذا الأمر على النساء(58)، وقد رسمت الكاتبة (أنعام كجه جي) هذه الصورة عن الرجل العراقي ، فهي مغتربة عراقية ومطلعة على طريقة التفكير الغربية ، وكان مما أشارت اليه في هذا الخصوص ، هو ان طريقة تصرف الرجل العراقي والشرقي تختلف ـ على نحو عام ـ عن طريقة تصرف الرجل الغربي ،فالرجل العراقي عندما يكون بمعية امرأة ، يتقدمها هو في المسير ، لا يسمح لها بالتدخين ، في الوقت الذي يسمح لنفسه بذلك ، وهو بصحبتها ، وعندما يجلسا على طاولة ، يجلس هو على الكرسي المواجه للناس ، ويترك لها الكرسي الذي يواجه الحائط ، يتفاهم هو مع النادل ويطلب الطعام ، ويسأل عن مكان المغاسل ، ثم يومئ لها بطرف عينه إنها في الممر الذي على اليمين(59) ، ومن القوانين الاجتماعية الأخرى ، التي اشرتها رواية (مائة ليلة وليلة) قانون يحتم على الضيف عدم رفض ما يقدم له ، كالسيجارة على سبيل المثال (60) ، كما على الشخص الأجنبي التعامل بإيجابية مع عرف اجتماعي عراقي يطيل فيه صاحب الدار مصافحة زائره (61)، من جانب آخر يتذكر كاتب رواية (مائة ليلة وليلة) ما عليه بلاده من تنظيم ونظافة ورقي حضاري ، اذا ما قورنت بواقع العراق المزري ،وتدهوره من جانب الخدمات والتنظيم وانتشار القمامة في الشوارع (62) ،ويستمر الروائي الأمريكي بتذكيرنا بالبون الشاسع بين ما يؤمن به العراقيون من نظرية وما يطبقونه على ارض الواقع ، فعلى الرغم من التزام العراقيين بالدين الإسلامي ، وبتعاليمه التي منها الحث على النظافة ، لم يجد الكاتب الأمريكي تطبيقا لهذا الالتزام في سلوكياتنا ، فها هو كاتب رواية (خمسة وخمسة وعشرين) يؤاخذنا على عدم وجود دورات مياه على الطرق الخارجية (63).

الأمر الآخر الذي يمكننا الإشارة اليه هنا ، هو ان الروائي الأمريكي عندما يتحدث عن شخصياته الروائية العراقية ، لا بد ان يستحضر خلفياتها القومية والأثنية ، لعله في هذا يؤشر على مدى الاستقطاب الطائفي الحاصل في العراق حاليا ، ومن ذلك المترجم السني (دودج) في رواية (خمسة وخمسة وعشرين) ، والمترجم الشيعي (علي)، والمترجمة المسيحية (سارة)في رواية (عبء الصحراء)، والمترجم المسيحي (يوحنا) في رواية (عظام القديس بطرس)، من جانب آخر نجد ان الروائي الأمريكي عندما يتحدث عن الشيعة العراقيين في الروايات الأمريكية ، سرعان ما يثني على كلامه السابق بالقول بارتباط شيعة العراق بإيران ، فالشيعة يريدون ضم جنوب العراق إلى ايران (64) ، ووصل الأمر ببعض الروايات إلى القول بان الشيعة في جنوب العراق يقرأون القران ، ويأذنون في مساجدهم بنغمات موسيقية متأثرة بالتراث الإيراني. (65)

صعوبة التطابق:

على الرغم من ان محاولة بعض روايات الطرفين (الأمريكي والعراقي) توظيف شيء من تراث وثقافة الطرف الآخر ، كان بدوافع فنية ، بغية تأصيل الواقعية في تلك الروايات ، كما هو حال رواية (المنطقة الخضراء)،عندما تحدث (شاكر نوري) عن الأغاني التي يغنيها أفراد الفرقة العسكرية المكونة من خمسة أشخاص المكلفة بحماية احدى بوابات المنطقة الخضراء ،الذين يعشقون موسيقى الراب الشهيرة ،ويتغنون ببعض أغانيها الشهيرة ، خلافا لتعليمات قيادتهم ،وهم كلا من :(نيل الأسود الزنجي وهو من اب أفريقي مسلم ، وباتشلور البدين الأبيض كأنه قطعة طبشور ، وجيمي الأصفر الآسيوي ، وريتشارد الأحمر الايرلندي ،وباتيسيا ذو الملامح الأمريكية اللاتينية)، ومن جانبها غنت الكاتبة (أنعام كجه جي) في روايتها (الحفيدة الأمريكية) مع الشابات الأمريكيات اللائي ينتظرن فك اسر أحبتهن ، أغنية (الشريط الأصفر المربوط حول شجرة البلوط العتيقة) ، بالمقابل حاولت بعض الروايات الأمريكية من خلال توظيف بعض الأشعار من التراث العربي ،كما هو حال رواية(مركز بغداد) ، عندما استشهد بأشعار عربية على لسان بطله(محسن الخفاجي) وابنته(مروج)، فضلا عن رواية(مائة ليلة وليلة)،الذي وظف تراث الف ليلة وليلة ، وتراث قيس بن الملوح ، إلا أننا نجد ان استغلال كتاب تلك الروايات معرفتهم بلغة الطرف الآخر وثقافته، ومن ثم سعيهم لتوظيف بعض من مفردات ثقافته ، كان لغايات ثقافية بعيدة المدى ،يرمي اليها كتاب تلك الروايات ،هي القول بسعة اطلاع كتاب تلك الروايات ومعرفتهم الجيدة بثقافة الطرف الآخر،تلك المعرفة التي أوصلت أصحابها إلى نتيجة مفادها ،صعوبة التطابق بين الجانبين (العراقي والأمريكي أو الغربي) .

ولغرض بيان هذه الثيمة أود الاستشهاد بمقطع سردي ورد في رواية (الحفيدة الأمريكية) للكاتبة (أنعام كجه جي) يتحدث عن مدى الفارق الثقافي بيننا وبين الغرب ، تقول الكاتبة على لسان بطلتها المترجمة(زينة)التي خرجت من المنطقة الخضراء متلحفة بعباءة غطت جسمها كله سوى العينين:((ريح كانون باردة تضربني وتفتح عباءتي ، كان هناك رجل مربوع بدشداشة رمادية ، يأتي قادما اتجاهي من آخر الشارع ، فلممت العباءة حول وجهي ، ولم اترك سوى عيني اليمنى مكشوفة ترى الطريق ... ولما حاذاني الرجل متعمدا الاقتراب مني إلى ادنى حد ممكن ، حدجته بنظرة مباشرة صفيقة لكي أقول له : باني قوية ولست خائفة منه ، وسمعته يقول وهو يجتازني : شلون عين ... تقره وتكتب ! .. يالله ! كدت أدور على عقبي واجري وراءه وأتوسل اليه ان يسمعني المزيد من تلك الحرشة العبقرية .وفي البلد الذي جئت منه ، لم يعد احد يتحرش بالنساء في الشوارع ، ليس بي على الأقل . لاشك ان نساء هذه البلاد يرفلن في حرير الغزل والنظرات الملتهبة التي تكشط عن جلودهن قشرة البلادة والإهمال ، كيف سأشرح لـ (كالفن) في إيميل موجز معنى العين التي تقرا وتكتب ؟ وهل سيفهمني ويزيت من اجلي مخيلته الخاملة كما تزيت مفاصل باب كثير الصرير ، مسكين حبيبي الأمريكي

لن يفلح مهما فعل في مجاراة ذلك العراقي السرسري الذي حاذاني قرب سوق الثلاثاء وحك الصدأ عن أنوثتي))(66) والنتيجة التي نصل اليها هنا هي استحالة التطابق الثقافي بين الطرفين ، على ان القضية هنا ليس لها علاقة بالتراتيبية الثقافية التي تؤمن بها العقلية الاستعمارية ، وقد اشرنا في تمهيد الدراسة إلى ان دراستنا هذه تستند إلى رؤية إدوارد سعيد للظاهرة الكولونيالية ،أو خطاب ما بعد الاستعمار ، ومن ثم فنجن عندما نصل إلى هذه النتيجة لا نقصد بها التراتيبية المقيتة ، بل إننا نقصد تباين العقلية الذي يفضي إلى سلوكيات متناقضة ،وهو الأمر الذي جعل (أنعام كجه جي) تقول باستحالة التطابق الثقافي بين الثقافة العربية والثقافة الغربية ، حتى ولو أوحى التشابه الشكلي بينهما عكس ذلك ، عندما أشارت إلى ان تطابق العيد الوطني الفرنسي الذي يصادف في الرابع عشر من تموز ، عندما زحفت جموع الفرنسيين على سجن الباستيل معلنة اشتعال الثورة الفرنسية الكبرى ، مع العيد الوطني العراقي ،الذي يصادف في التاريخ نفسه :((كما لو ان الضباط الأحرار تقصدوا الاقتداء بالتاريخ الشهير ، لكن أحلامهم طاشت عن أهدافها ..... لم يحققوا سوى التشابه في القسوة والاختلاف في النتائج لننظر مئتي سنة ونر))(67)، إذن فالتشابه بالقسوة بين الضباط الأحرار العراقيين ، وجموع المنتفضين الفرنسيين ، لا يعني تشابها في النتائج ، ففرنسا اليوم بلد حر وديمقراطي ، في حين بقي العراق أسيرا للنظرة السوداوية التي لا تريد ان تبارحه ، حتى ولو انتظرنا الفي سنة وليس مئتي سنة كما وعدتنا الكاتبة ، وفي السياق ذاته يخبرنا (صموئيل شمعون) في روايته الموسومة(عراقي في باريس)عن امرأة فرنسية جذابة فقدت كلبها في ليلة الـــ14 من تموز ، في خضم الاحتفال في اليوم الوطني الفرنسي ، فتقول في ذلك :((إنني فقدت كلبي الصغير في يوم 14 يوليوز، أليس ذلك محزناً؟))،فيجبها الكاتب جوابا فيه إشارة إلى الفارق بيننا وبينهم ، عندما يقول لها :((وأنا فقدتُ وطني في يوم 14 يوليوز، أليس ذلك محزناً؟))(68).

وفي السياق ذاته ، أود إضافة أمرا طريفا له علاقة بالموضوع السابق ، تحدثت عنه الروايات العراقية ، لعل في الحديث عنه إضافة نوعية طريفة ، لموضوع استحالة التطابق الثقافي بينا وبين الآخر الغربي ،وهو الحديث عن فائدة الصحف والجرائد عندنا ، وفي هذا الخصوص أود الإشارة إلى ما تكلم به (فرات) بطل رواية (إعجام) للكاتب (سنان أنطون)،الذي اقتيد إلى سجون الطاغية من قاعات الجامعة ، لأنه كان يجاهر بالانتقاص من الطاغية ومن نظامه ، وفي سجنه راح (فرات) يكتب نصوصا غير معجمه ، تسخر من أيديولوجية حزب البعث ومن نظام صدام حسين ، وعندما تطلب سلطات الأمن من احد المطلعين إعجام تلك الكتابات ، يتبين لهم إنها عبارة عن نقد ساخر من سلطات حزب البعث الحاكمة ، والمفارقة ان الكاتب (سنان أنطون) قد صدر روايته بمقولة صدام حسين الشهيرة التي تقول :(اكتبوا بلا خوف ولا تردد أو تقيد ، لاحتمالات ان الدولة راضية أو غير راضية عما تكتبون) ، وكان مما كتبه (فرات) في تلك النصوص ، ان سلطة حزب البعث كانت تمنع مشجعي كرة القدم من إدخال الصحف إلى ملاعب كرة القدم ، خوفا من جلوس المشجعين عليها ، لأنها تحمل صورا للقائد الضرورة ، يكتب (فرات)عن هذه الفكرة قائلا : يا ليتهم يعرفون ما يُفعل بهذه الصحف، كلما كان هناك ازمه ورق تواليت ، كنا نضطر لاستعمال الجرائد ، وكنت اختار الصفحة الأولى ، لأنها تحفل بالصور والافتتاحيات ، وكنت اعكس الآية ، واصبح أنا القاعد (تحريف القائد)، فاقعد عليه وأسمح لشاربه أن يمشطا استي))(69)، من جانبها تتحدث (أنعام كجه جي) على لسان (طاووس) تلك المرأة المسلمة البسيطة الطيبة ، التي قضت عمرها في خدمة عائلة المذيع المسيحي الألمعي (صباح شمعون بهنام) ورضاعة أطفالهم ، عندما تصاب أمهم بحمى التيفوئيد ، تتحدث عن أهمية الصحف ، فتقول عنها إنها : ((مفيدة لمن لا يقرأ. تحمي الرأس من الشمس. توضع على حافّة الرصيف للجلوس في انتظار الباصّ. تفرش على المائدة ساعة الأكل)) (70)، وأما الكاتبة (دنى غالي) فقد اكتشفت فائدة أخرى للصحف في بلاد المنفى، فها هي تتحدث على لسان (مروى البصري) بطلة رواية (عندما تستيقظ الرائحة) عن

تلك الفائدة ، فتقول : ((في باص بلدان الأمان الأصفر، في قطار عواصم التيه الأحمر، نخفي وجوهنا عن بعضنا بين طيات كتاب أو جريدة، أو نلزم الصمت وَنُيَمِّمُ وجوهنا شطر النوافذ لئلا نكشف عن انتمائنا الواحد إن تصادف ذلك))(71).

ولعل من النافلة ان اذكر هنا ان فكرة استحالة التوائم بين الثقافات المختلفة ، لا يقتصر على ثنائية (شرق ـ غرب) بل إنها تتعدى ذلك إلى ثنائيات اكثر ضيقا ، كحديث الروائيين عن الفروق الهائلة في التفكير ، بين المسيحيين والمسلمين العراقيين ، ففي رواية (زينب وماري وياسمين) للكاتبة (ميسلون هادي) ،نتبين مدى الفرق الهائل في طريقة التفكير بين عائلتين ؛ أحداهما مسيحية والأخرى مسلمة ، تبادلتا المواليد عن طريق الخطأ ،فتربت المولدة المسيحية(ياسمين عبد الأحد)عند عائلة (محمد) المسلمة الفقيرة ، وبالمقابل تربت المولودة المسلمة (ياسمين عبدالواحد)عند عائلة (عبد الأحد) مسيحية ، ولما اكتشفت العائلتان حقيقة الأمر بعد سبعة عشر عاما ، صعب على الفتاتين الانسجام مع بيئتهما الحقيقية ، فتبقى الفتاتان موزعتان بين ماض يسكنهما ، ولم يعد جزء منهما ، ومستقبل ينتظرهما ولم تصبحا جزء منه ، فقد تعرفت (ياسمين) المسيحية التي تربت عند عائلة مسلمة على الفقر والتدين القسري الممزوج بطقوسية فردية ،وعلى ذكورية العائلة وضعف الأنثى ، فالأب (محمد) ينفق ما يحصل عليه في سبيل إرضاء شهواته ونزواته ، ويقيم علاقة جنسية مع اخت زوجته ، ويمارس عنفا غير مبرر مع زوجته (زينب)التي تزوجها على الرغم من كونه يكبرها بسنوات كثيرة ، سدادا لدين برقبة عائلتها ، بالمقابل تتعرف (ياسمين) المسلمة التي تربت عند عائلة مسيحية على رفاهة العيش وثقافة الأم (ماري) وعطفها ،واستقامة الأب(عبد الأحد) وشفقته ، وحسن تعامله ، ومثابرة الجميع على الدراسة والتحصيل العلمي ،الأمر الذي جعل (ياسمين) تعيش صراعا بين غربة تحس بها في بين (عبد الأحد) وقسوة تشعر بها في بيت (محمد) ، امر شبيه بالصراع الذي يعيشه المغترب العراقي ، فهو في صراع بين وطن منحه كل شيء ؛ الأمن والأمان والعيش الرغيد والتوازن بين والحقوق والواجبات ، والاحترام والتقدير ، ولكنه سلبه الحنين لبقعة اسمها الوطن ، وبين وطن سلبه كل شيء ، سوى الذكريات ، وبالمقابل تحدثت بعض الروايات الأمريكية عن الأمر ذاته ، عندما اشرث إلى وجود فارق ثقافي ليس بين العراقيين والأمريكيين حسب ، بل بين العراقيين انفسهم ،وضرب على ذلك مثلا بطقوس تشييع الجنائز لدى العراقيين ، فالنساء المسلمات العراقيات ،عندما يشيعن موتاهم ، يصرخن ويبكين ويولون ، في حين يكتفي المسيحيون العراقيون ، بإنشاد الأناشيد الدينية وقرع أجراس الكنيسة(72)، من جانبه قلل الكاتب الأمريكي(جوستين هوكلير) في روايته الموسومة(عبء الصحراء)من حدة هذا التوجه ،عندما جعل السائق المسلم (محمود) يتعلق بـالمترجمة (سارة) المسيحية ،ويتفقان على الزواج والهرب خارج العراق .

الخاتمة

وفي الختام ، فاذا خلاصة ما نصل اليه هنا ،هو اتفاق كلا الطرفين(العراقي والأمريكي) على صعوبة التطابق الثقافي بين الطرفين ، العراق بوصفه بلدا شرقيا وعربيا واغلب سكانه مسلمين ، وبين الجانب الآخر بوصفه غربيا أو أمريكيا أو حتى مسيحيا ،على ان الحكم بصعوبة عدم التطابق الثقافي هنا لا ينطلق من موقف تقليدي يستند إلى الموقف الكولونيالي الاستعلائي ،الذي يرى استعلاء تجربته الغربية والأمريكية والمسيحية ،على التجربة الشرقية والعربية والإسلامية ،أو ارتباط صورة الشرق والعرب والعراق، بالتوحش والتخلف والخشونة والتعصب ، إنما هو مؤشر على الفارق الثقافي بين الجانبين ،بغض النظر عن مدى تطور وتخلف أي جانب ، ومن جانب آخر لا يخفي الروائي الأمريكي إعجابه بسحر العراق الشرقي ، الذي يمثل في مفهومه قيمة حضارية قديمة وليست حاضرة ، ونلمس هذه الثيمة واضحة

في رواية (عظام القديس بطرس) عندما تحدثت الرواية عن كون العراق منجما للتراث الإنساني ، ولاسيما التراث المسيحي ، وأخيرا علي الوقوف على ثيمة اتفق الطرفان (العراقي والأمريكي) عليها ،وهي عدم استعداد الشعب العراقي لممارسة الديمقراطية والحرية، فالعراقيون غير مستعدين للتعامل مع الحرية والديمقراطية التي منحت لهم ، وانهم يريدون قائدا مرهوبا قويا يعلمهم النظام بقوة (73).

الهوامش

1- ينظر : (الرواية العراقية صورة الوجع العراقي) : ص 381 وما بعدها .
2- (الرواية الجديدة تفتقد المنطق – نصوص) مقال للكاتبة (صبيحة شبر).
3 - ينظر :(الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر) .
4 - ينظر : (مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن) : ص 117 .
5 - ينظر : (الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف) : ص 37 .
6 - ينظر : (الأدب العام المقارن ، دانييل هنري باجو) : ص 89 وما بعدها .
7- ينظر : (تمثلات الآخر ، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط) : ص 293.
8 - ينظر : المصدر السابق نفسه : ص297 - 298 .
9 - ينظر : المصدر السابق نفسه .
10 - ينظر : الخطاب الروائي العراقي والأمريكي ، دراسة مقارنة في روايات ما بعد التغيير (التمهيد) .
11 - ينظر: ينظر : (تمثلات الآخر ، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط) : ص 300
12 - ينظر : (مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن) : ص 114 .
13 - ينظر المصدر السابق نفسه : ص 108 .
14 - ينظر : المصدر السابق نفسه : ص 110 .
15 - ينظر : (الغرب في الرواية العربية الحديثة) : ص 428.
16 - ينظر : (الشرق الخيالي ورؤية الآخر) : ص 11 - 12 ، وينظر كذلك : (نحـن والآخـر) : ص : 11 وما بعدها ، وينظر كذلك : (الغرب في الرواية العربية الحديثة): ص 29 - 30 .
17 - ينظر : (صورة الغرب في الأدب العربي) : ص 99 .
18 - ينظر : (صورة الأمريكيين والأوربيين في روايات عبد الرحمن منيف) : ص 203 .
19 - ينظر على سبيل المثال : (صورة أمريكا والأمريكان في الرواية العربية) : ص 378.
20 - ينظر : المصدر السابق نفسه : ص 357 .
21 - ينظر : (مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن) : ص 118 - 119 ، وينظر كذلك : (صور جدلية الانا والآخر في الخطاب الروائي العربي)، وينظر كذلك : (صورة الآخر في الرواية العراقية المعاصرة) : ص 135 وما بعدها .
22 - ينظر : (صورة الأمريكيين والأوربيين في روايات عبد الرحمن منيف) :ص207 .
23 - ينظر : رواية (إنه يحلم أو يلعب أو يموت) : ص 8 .
24 - رواية (الحفيدة الأمريكية) : ص 120 - 121 .
25 - المصدر السابق نفسه: ص 120 .
26 - ينظر : المصدر السابق نفسه : ص : 85 .
27 - ينظر : المصدر السابق نفسه : ص : 110 .
28 - ينظر : المصدر السابق نفسه : ص : 159 .
29 - بنظر المصدر السابق نفسه : ص : 172 .
30 - ينظر : (القفل بين ثقافتين) .
31 - ينظر : رواية (هواء قليل): ص 208 .
32 - ينظر : رواية (المنطقة الخضراء) .
33 - ينظر : رواية (هواء قليل) :ص 273 .
34 -ينظر : رواية (حليب المارينز) :ص :35 .
35 - (ما تبقى من أمريكا في المتخيل السردي العراقي) .
36 - رواية (مصابيح اورشليم) : ص 26 .
37 - ينظر : رواية (طشاري) : ص 88.
38 - ينظر: رواية (هواء قليل): ص 40.
39 -ينظر رواية (عندما تستيقظ الرائحة) : ص 65 .

40 ـ ينظر :رواية (الحفيدة الأميركية) : ص 157 .
41 ـ رواية (طشاري) : ص 67 .
42 ـ ينظر : المصدر السابق نفسه : ص 72 .
43 ـ المصدر السابق نفسه : ص 96 .
44 ـ المصدر السابق نفسه : ص 67 .
45 ـ ينظر : المصدر السابق نفسه : ص 251 .
46 ـينظر : رواية (هواء قليل) : ص 50-55-107-152.
47 ـ إشارة إلى رواية (الجمال العربية على الثلوج القطبية)للكاتب (محمد سيف المفتي) .
48 ـ ينظر رواية : (رقص على الماء ـ أحلام وعرة) للكاتب (محمود البياتي) ويذكر ان السلطات المصرية كانت قد منعت هذه الرواية من التداول في معرض القاهرة للكتاب بأمر من الأزهر ، سنة 2008 ، لأنها تحتوي كما تقول على قصائد تخدش الحياء ، في حين ان الكتاب رواية وليست ديوان شعر ، ربما لان بطل الرواية شاعر من العراق يقم في السويد وعشيقته شاعرة يهودية بولندية ، وربما لان الرواية تضمنت أشعارا مختارة من بعض الشعراء ،الأمر الذي يؤشر على مدى التضييق على حرية التعبير ، وبالمقابل نجد ان السويد، التي يسكنها الكاتب (محمود البياتي) ومعها دول أوروبا كثيرة ، تمنع الكتب والأسطوانات والأغاني والرموز التي تروّج بوضوح للتمييز العنصري والعنف والكراهية، بعد ان يتم فحصها فحصا دقيقا .
49 ـ رواية (حافة التيه) : ص 76 .
50 ـ رواية (ميلاد حزين) : ص 104.
51 ـ ينظر : رواية (سهدوثا) : ص130 .
52 ـ ينظر : (الصراع الحضاري في الرواية العربية) : ص 382 .
53 ـ ينظر : رواية (هواء قليل) : ص 61.
54 ـ رواية المدفع الأمريكية
55 ـ ينظر : (الفردوس المشؤوم دراسات في منجز بكاء المنافي علي عبد العال).
56 ـ ينظر : رواية (هواء قليل) : ص 69 -70.
57 ـ ينظر : رواية (عظام القديس بطرس) : ص 14 .
58 ـ ينظر : رواية (مائة ليلة وليلة) : ص 21.
59 ـ ينظر : رواية (الحفيدة الامريكية) : ص 125 .
60 ـ ينظر : رواية (مائة ليلة وليلة) : ص 207 .
61 ـ ينظر : المصدر السابق نفسه : ص 136 .
62 ـ ينظر : المصدر السابق نفسه :ص 259 .
63 ـ ينظر : رواية (خمسة وخمسة وعشرون) : ص 275 .
64 ـ ينظر : المصدر السابق نفسه : ص 263 .
65 ـ ينظر : رواية (مائة ليلة وليلة) ص : 16 وص 132 .
66 ـرواية (الحفيدة الأميركية) : ص 88 .
67 ـ رواية (طشاري) : ص 105.
68 ـ رواية (عراقي في باريس) : ص 125 .
69 ـ ينظر : رواية (اعجام) : ص 117.
70 ـ رواية (الحفيدة الامريكية) : ص 162 .
71 ـ رواية (عندما تستيقظ الرائحة) : ص 154 .
72 ـ ينظر : رواية (عظام القديس بطرس) : ص 32 .
73 ـ ينظر : رواية (مائة ليلة وليلة) : ص 260 ، وينظر كذلك : رواية (حرب العاجز) : ص 151 .

قائمة المصادر

1 . الروايات العراقية

1. اعجام ـ سنان انطون ، منشورات الجمل ، بيروت ، ط1 ، 2013 .
2. الامريكان في بيتي ـ نزار عبد الستار ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1 ، 2011 .
3. التشهي ـ عالية ممدوح ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 2007 .

4. ثلاثية شيكاغو ـ الجزء الاول (حافة التيه)ـ محمود سعيد ، دار افاق للنشر والتوزيع في القاهرة ،ط1 ، 2009.
5. الجمال العربية على الثلوج القطبية ـ محمد سيف المفتي ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، ط1 ، 2007 .
6. جمر عراقي على ثلج سويدي ... جسيكا ـ علي عبد العال ، دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع ،دمشق ،ط1 ، 2008
7. حرب العاجز ،سيرة عائد ، سيرة بلد ـ زهير الجزائري ، دار الساقي ، بيروت ، ط1 ، 2009
8. الحفيدة الأميركية ـ انعام كجه جي ، دار الجديد ، بيروت ،ط1 ، 2008.
9. حليب المارينز ـ عواد علي ، دار فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان ، ط2 ، 2010 .
10. دوامة الرحيل ـ ناصره السعدون ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1 ، 2014 .
11. ذبابة من بلد الكتروني ـ نهار حسب الله ، دار الينابيع للنشر والتوزيع في دمشق ،ط1 ، 2012 .
12. راشد يحصد ـ حسن عبد الرزاق ، دار تموز للطباعة والنشر ، دمشق ، ط1 ، 2014 .
13. رقص على الماء ـ احلام وعرة ـ محمود البياتي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ، ط1 ، 2006
14. زينب وماري وياسمين ـ ميسلون هادي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 ، بيروت ، 2012.
15. سهدوثا ـ ليلى قصراني ، دار الغاوون للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 2011 .
16. طشاري ـ انعام كجه جي ، دار الجديد ، بيروت ، ط1 ، 2013
17. عراقي في باريس ـ صموئيل شمعون ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، ط1 ، 2012 .
18. عقيق النوارس ـ لميس كاظم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2009 .
19. عندما تستيقظ الرائحة ـ دنى غالي ، دار المدى في دمشق ، ط1 ، 2006 .
20. مصابيح اورشليم ـ علي بدر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2006 .
21. المنطقة الخضراء ـ شاكر نوري ، دار ثقافة للنشر والتوزيع ،بيروت ، ط1، 2009 .
22. ميلاد حزين ـ علي عبد العال ، دار حوران في سورية ، ط1 ، 2005.
23. هواء قليل ـ جنان جاسم حلاوي ، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ، 2009 .
24. وجه فنسنت القبيح ـ ضياء الجبيلي ، اصدارات اتحاد الادباء والكتاب في البصرة، ط1، 2009.

2. الروايات الأمريكية :

1-Fives and Twenty-Fives by Michael Pitre, Publisher: Bloomsbury, USA, 2014
2-The Burden of the Desert by Justin Huggler, Publisher: Short Books Ltd, 2014
3-St. Peter's Bones by Kenneth R. Timmerman, Publisher: Cassiopeia Press, 2011
4-One Hundred and One Nights by Benjamin Buchholz, Publisher: Back Bay Books; 1 Original edition, 2011
5-Cannonball by Joseph McElroy, Publisher: Dzanc Books, 2013

رواية (خمسة وخمسة وعشرون) للكاتب (مايكل بيتر)	Fives and Twenty-Fives by Michael Pitre
رواية (عبء الصحراء) للكاتب (جوستون هوكللر)	The Burden of the Desert by Justin Huggler

رواية (عظام القديس بطرس) للكاتب(كينث تيميرمان)	St. Peter's Bones by Kenneth R. Timmerman
رواية (مائة ليلة وليلة) للكاتب (بنيامين بوتشلوز)	One Hundred and One Nights by Benjamin Buchholz
رواية (المدفع) للكاتب (جوزيف مكليروي)	Cannonball by Joseph McElroy

3 . المصادر العامة :

1. الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف ، سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2008.
2. الآدب العام المقارن ، دانييل هنري باجو ، ت : غسان السيد ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1997 .
3. تمثلات الآخر ، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط ، د. كاظم نادر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2004
4. الخطاب الروائي العراقي والأمريكي، دراسة مقارنة في روايات ما بعد التغيير، د. عبد الكريم السعيدي ، دار الصادق ، ط2 ، 2017 .
5. الرواية الجديدة تفتقد المنطق ـ صبيحة شبر ، مقال منشور في جريدة الزمان العراقية ، نشر في 2015/5/6.
6. الرواية العراقية صورة الوجع العراقي ،ثماني سنوات في عمر الرواية العراقية (2004 - 2012) ـ حسين السكاف ،دار الروسم للنشر والتوزيع ، بغداد ، ط1 ، 2014 .
7. الشرق الخيالي ورؤية الآخر ، صورة الشرق في المخيال الغربي ، الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط ـ تييري هنتش ، ترجمة : د . مي عبد الكريم محمود ، دار المدى ، دمشق ، ط1 ، 2006 .
8. الصراع الحضاري في الرواية العربية ـ رؤية تحليلية نقدية ـ عبد الفتاح محمد عثمان، دار العدالة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة،، ط1 ،1990 .
9. صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي بحث منشور في موقع دروب الإلكتروني للدكتور جميل حمداوي
10. صورة الاخر في الرواية العراقية المعاصرة ـ محمد قاسم لعيبي ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، 2011.
11. صورة الأمريكيين والأوربيين في روايات عبد الرحمن منيف ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة البعث السورية ، للطالبة ديمة محمود الوقاف ، 2007.
12. صورة الغرب في الآدب العربي ، رواية فياض لخيري الذهبي نموذجا ، غسان السيد ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 24 /العدد 3و4 / 2008
13. صورة أمريكا والأمريكان في الرواية العربية ، محمد الخزعلي ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، المجلد الرابع ، العدد 2، 2007 .
14. الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر ، للدكتور نوفل يونس الحمداني ، مجلة ديالى للعلوم الإنسانية الصادرة من كلية التربية للعلوم الإنسانية في ديالى ، العدد 55 لسنة 2012 .

15. الغرب في الرواية العربية الحديثة ـ جمال مباركي ، رسالة دكتوراه من كلية الآدب جامعة العقيد الحاج لخضر باتنه في الجزائر ، 2009 .
16. الفردوس المشؤوم ـ دراسات في منجز حكّاء المنافي علي عبد العال ـ الدكتور حسين سرمك حسن ، دار الينابيع ، دمشق ، ط1 ، 2010.
17. القفل بين ثقافتين ـ عبد الكريم السعيدي ، دراسة منشورة في مجلة العربي الكويتية ـ السنة 2013 ـ عدد شهر اذار ـ ملحق البيت العربي .
18. ما تبقى من أمريكا في المتخيل السردي العراقي ـ الدكتور نجم عبد الله كاظم ،دراسة منشورة على صفحات جريدة المدى في العدد 2828 في 2013/6/25
19. مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، د. ماجدة حمود ، منشورات اتحاد الكتاب العرب في دمشق ، 2000 .
نحـن والآخـر ، دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر (الشرق/ الغرب، التراث/ الهوية، الممكن / الواقع) ـ محمد راتب الحلاق ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، في دمشق ، 1997 .